قصص



المجموعة القصصية الاولى

أحمد ابراهيم الفقيه



أحبينى هذه الليلة

هاجمته على الفور تلك الرائحة، كان قد دفع التذكرة واجتاز ممرا طويلا، ثم دلف من خلال ستارة حمراء تغطى الباب إلى دفء الصالة.

وقف قريبا من عتبة الباب لحظـة قصـيرة، يخلـع معطفه وينفض عن شعره ما علق به من ماء المطر، وينتظر حتى تألف عيناه الرؤية داخل عتمة المكان وجاءت تـركض إليه تلك الرائحة التى تختلط فيها رائحـة العطـور برائحـة العرق والدخان والخمر، رائحة هى الآن بلا شك جزء مـن المكان، ترسبت، وتراكمت وتعتقت وظلـت عالقـة بسـقفه وازدادت مع مضى الليل نفاذا وحدة.

هاجمته على الفور تلك الرائحة فأثارت فـى نفسـه رغبة مفاجئة للفرار من هذا المكان والعـودة إلـى أمطـار الشارع وأضوائه وسمائه وهوائه، والذهاب بعد ذلـك علـى الفور إلى الفندق حيث زملاء الوفد الذين لم يتركهم ويـأتى إلى هنا إلا بعد أن اطمأن إلى أنهم جميعا قد ذهبوا إلى النوم فى أعاقب سفر مرهق من طرابلس إلى هذه المدينـة لكـن طبلا فى مكان له من الصالة كان يناديه كانت إيقاعاته التـى

بدت وكأنها ما من الصالة كان يناديه، كانت إيقاعاتـه التـى بدت وكأنها قادمة مع الريح من مكان بعيد بعيد تتجه رأسـا إليه وتخاطبه وتدعوه باسمه عبد ا ، إن لغة خفية لا يستطيع أن يفك رموزها أو يعرف أسرارها هى التى يتكلم بها الطبل الآن، وإن شيئا عميقا فى نفسه كان يعرف هذه اللغة ويفهمها ويلى على الفور نداءها، اختفت كل آلات الموسيقى الأخرى وظل الطبل وحدة يرسل النداء، كأن قبيلة أفريقية تنادى الآن ابنا لها تاه فى أحراش إحدى الغابات، وسيقع بعد قليل فريسة فى أيدى قطعان من النمور المفترسة وعلى القبلية أن ترسل له بهذا الطبل إشارة الخطر وتدله على الطريق.

بدأ ظلام الصالة يتبدد شيئا فشيئا أمام عينيه، لم تكن هناك غابة ولا قبيلة أفريقية ولا نمور مفترسة، كـان هنـاك ملهى على غير ما تعود أن يرى الملاهى أنيقا بالغ الفخامـة والبهاء كأنه ليس ملهى ليليا وإنما صالة بقصر رجل وافـر الثراء كل شئ فيه كان يتألق متوهجا تحت نور المصـابيح الخافتة التى أحسن توزيعها فى كل الزوايا، البسط والسـتائر وقطع الديكور وأعمدة البلور والموائد التـى يجلـس إليهـا الزبائن، حتى هؤلاء الزبائن كانوا يشعون توهجا كأن غبارا

فسفوريا قد ذروه فوق وجوههم ورؤوسهم يتابعون الموسيقى فى صمت كأنه الصلاة، كأن الذى يشاهدونه لـيس عرضـا راقصا وفرقة تعزف الطبل وآلات النفخ بـل قداسـا دينيـا يقتضى التبتل والخشوع، وعلى غير ما تعود أن تـرى فـى الملاهى لم يكن هناك زبون واحد أفقده الخمر رأسه فمضـى يطوف بين الموائد بغيـر رأس، كـان الجميـع يحتفظـون برؤوسهم سليمة يلمع غبارهـا الفسـفورى تحـت ضـوء المصابيح وعندما جاء عامل الملهى يأخذ عنه معطفه ويقوده إلى المائدة التى اختارها له، مرتديا بدلة ذات طابع تاريخى، مستعملا فى الحديث لغة لا تعرفها إلا أرقى الصالونات، كان يبدو وكأنه ليس نادلا بملهى ليلى بل هو أحد موظفى المراسم بقصر ملكى بدأ الأمر فى ذهن "عبد ا " مريبا إلى أبلغ حد، إنه لم يتسلل هاربا من الفندق فى جنح الظلام إلا لكى يشرب كأسين طال اشتياقه إليهما بعيدا عن فضول زملائه أعضـاء الوفد، فإذا به يدخل الآن عالما غريبا لم يعرف له شبيها من قبل، إنه لا يخشى شيئا سوى فضيحته أمام أعضـاء الوفـد الرسمى الذين جاءوا معه لحضور مؤتمر يبدأ غدا، لعل هذا ليس ملهى على الإطلاق، ماذا يكون إذا إنه بالتأكيـد لـيس

قصرا لأحد الأثرياء دخل إليه خطأ، فقد دفع التذكرة وشـاهد لوحة تصرخ بالضوء أن هنا ملهى، ماذا يكون يا ترى؟ لعلها عصابة تستعمل أسلوبا راقيا لاصطياد ضحاياها، فـإن هـذا السكون الغريب الذى يسيطر على الجالسين بحيث لا تسـمع من خلاله شيئا سوى صوت الموسيقى، ليس سكونا عاديـا، إنه يوحى بأن شيئا ما سوف يحدث بعد قليـل، لا شـك أن الجميع بانتظار مشهد غريب سوف يتم بعد لحظـات أمـام أعينهم، رجل يرتدى لباس الساموراى يخرج من وراء أحـد الأعمدة يستل من حزامه سيفا ينتحر به أمامهم على الطريقة اليابانية القديمة أو يقوم أحد الجالسين فجأة إلى رفيقته يقبلهـا ثم يخرج من جيبه مسدسا يضعه فى جبينها ثم يطلق النـار لتهبط فوق الأرض جثة بلا حراك أو أى حدث آخر فظيـع يملأ القلوب رعبا، لماذا لا يقوم فى التو والحين ويفر بجلـده قبل فوات الأوان، لكن لهذا الطبل سـحرا لا يقـاوم، حتـى عندما انتهى العرض الراقص وجاء دور المغنى كان ما يهمه هو هذا الإيقاع الذى لا يذكر إيقاعا أو عزفا أو غناء استولى على مشاعره بمثل ما فعل هذا الطبل الذى تفـنن الزنجـى العجوز فى أن يقول من خلاله كل ما حوتـه افريقيـا مـن

قصص وأشعار وأساطير، كان ما يزال يسبح فى رؤى قديمة أيقضها فى ذهنه هذا الإيقاع ويرتشف فـى شـراهة كأسـه الثالث، عندما اكتشف فجأة أن القاعة قد خلت تماما إلا منه، أفرغت فى لمح البصر كل زبائنها ولم يبق من أحد سـواه، هبط قلبه على الفور إلى الأرض، وألتفـت مـذعورا إلـى الشمال وإلى اليمين، لم يكن هناك من أحـد سـوى عمـال الملهى يتناثرون فى أنحاء الصالة، أحد هؤلاء العمال، بل هو بالذات ذلك الذى قابله عند الباب وأوصله إلى هـذه المائـدة كان يقف قريبا منه يلوى نحوه عنقه ويبتسم فى شماتة ها قد تمت اللعبة ووقع فى الفخ جاءت الفضيحة التى كان يخشاها، بل هو الموت والفضيحة معا، قتيل بلا هوية فى حى الإثـم والخطايا، لقد كانت سيرته دائما حميدة فى أفواه الناس فـى وطنه، لا يعرفونه إلا رجلا فاضلا يراعـى ا فـى قولـه ومسلكه،بل إن أهله فى القرية لا يعرفون له اسـما غيـر " الشيخ عبد ا " ماذا سيقولون عنه الآن، أى ذكرى يتركهـا للطفلة الصغيرة وللولد الوحيد الذى أتـم أعوامـه العشـرة وسوف يصبح رجلا فى أى لحظة، ولعن الضعف الذى ساقه إلى هذا المكان، وفكر فى أن أول شئ عليه أن يفعلـه الآن،

هو أن يجمع كل ما لديه من قوة فى قفزة واحدة ترمى به إلى الباب لعل فى ذلك نجاة له بدلا من هذا الاستسلام، وهـم أن يفعل ذلك على الفور لولا أن حانت منه التفاته خاطفة إلـى منصة العرض ولدهشته البالغة كـان كـل زبـائن الملهـى يحتشدون هناك فى ساحة الرقص، عاد قلبه يصعد من جديد إلى صدره، أدرك أنهم يمنحون الآن حصة مـن البرنـامج لجمهور الملهى يرقصون تنهد عميقا فى ارتياح ولام نفسـه على سوء الظن يعامل الملهى الذى لم يكن يبتسـم لإيذائـه وإنما لمجرد التودد إليه لقد بدأ الرقص وما عليه الآن إلا أن يفعل مثل الآخرين ويذهب إلى الساحة ويرقص لا حاجة بعد الآن إلى الخوف والريبة والتفكير فى الخروج، فكل شئ من حوله يعد بسهرة ممتعة وهذا الطبل ما زال يرن فى سـقف القاعة يدعوه إلى بهجة الحياة ما عليه الآن إلا أن يذهب إلى الساحة ويرقص، وسيرقص كم لم يرقص أحد من قبل، لـن يكون رقصا، بل هو حوار مع هذا الإيقاع الذى تحمله ريـح مضخمة بالعطر من قلب أفريقيا، وسيكون الرقص وسـيلته الوحيدة للتفاهم مع هذا الطبل الذى تربطه به صداقة قديمـة، سيحكى له بالرقص قصصا تعلمها من جدته عندما كان طفلا

فى قريته التى تقع على حافة الصحراء، سيرد بالرقص حتى يقع فوق الأرض منهكا، وكان بالفعل أن يذهب إلى الساحة لكى يرقص، لولا أنه اكتشف فى اللحظة الأخيـرة أن ذلـك مستحيل،لقد نسى فى غمره هذا كله أنه لا يعرف الـرقص، ولم يحدث مرة واحدة فى حياته أن رقص، ذلك لأن أحدا لم يعلمه كيف يكون الرقص بل هو لم يشاهد الرجال والنسـاء يرقصون إلا عندما عرف الذهاب إلى الخـارج، ثـم كيـف ينسى أنه الوحيد فى هذه القاع الذى يحتل مائدة لا يشـاركه فيها أحد، لقد ذهب الآخرون إلى الرقص لأن هذا ما تعودوا أن يفعلوه منذ الصغر، ولأن أحدا منهم لم يـأت إلـى هـذا المكان بمفرده كما فعل هو، لقد جاء الرجـل ومعـه أنثـاه، وجاءت الأنثى ومعها رجله، ولهذا هم يرقصون،وأحسن من جديد بحرج الموقف، أحسن أنه صار الآن كسيحا، وأن الدم فى عروقه صار ماء، وأنه سوف لن يقوى على القيام مـن مقعده أو تحريك قدمه من موضعه،إنه الآن كسيح ما فى ذلك شك، وتأكد أن لا أمل له فى الشفاء من هذا الكسـاح الـذى أصابه فجأة إلا بشيء واحد، هو أن يرى زبونا واحدا غيـره بقى مثله فى الصالة خيبت أمله وزادته مرضا فلم يكن فـى

الصالة سواه، محال أن يأتى ذلك صدفة، محـال أن يـذهب الجميع إلى الرقص هكذا مرة واحدة بحيث لا يبقى إلا هـو، إن فى الأمر مؤامرة ما فى ذلك شك، إن شيئا ما يدبر ضده هذه الليلة وسوف يظهر جليا أمامه بعد لحظات كان عامـل الملهى ما زال يقف فى مكانه يلوى نحوه عنقه ويبتسم، طلب إليه أن يحضر كأسا أخرى لعله ينصرف بعدها، لكنه أحضر الكأس وعاد إلى مكانه يلوى بين لحظة وأخرى عنقه ويبتسم، لم يكن يبتسم شماتة ولا توددا، كان واضحا الآن أنه يبتسـم سخرية وهراء، أحسن "عبد ا " بـالموقف يـزادا حرجـا، ومرض الكساح فى ساقيه يزداد سوءا ما الذى يضحكك أيها النادل الذى يظن نفسه مديرا للمراسم الملكية، وما الغرابة فى أن يبقى زبون لا يشارك فى الرقص ألم تر هذا يحدث مـن قبل، أم تراك عرفت أننى قادم من طرابلس، وما العيب فـى ذلك أيها الرجل الملكى الذى يخفى قرنيه تحت غبـار مـن الفسفور،إنها أعظم مدن الدنيا شـهدت حضـارة الرومـان والإغريق وحضارة العرب إننى أعرف حقـدكم التـاريخى ضدنا، ما العيب فى أن الناس هناك لا يعرفون الرقص، هم يعتبرونه عيبا أن يرقص الرجال والنساء فى الأماكن العامة

نعم هذا صحيح لكن ليس فى كل الحالات ثم من أين استقيت هذه المعلومات المشوهة عن وطنى أيها الرجل الذى أفسدته حضارة تنهار وتتعفن ما العيب مع النساء فـى بـلادى، إن لديهن حرمة هناك، إن عليك أن تغسل فمك بماء الزهر قبل أن تأتى على سيرتهن، هل تريد لهن حياة مثل الأنثـى فـى بلادكم التى لم يعد لأنوثتها وإنسانيتها معنى، تريد للمرأة أن ترتاد الأندية والمقاهى وترقص فى الملاهى الليلية وتشـرب الخمر وترافق الرجال هل تسمى هذا حرية أم لعل هذه هـى الفضيلة فى بلادكم؟ أراك تبدى استياء من طريقـة الـزواج الرجل فى بلادنا أعرف كل ما يدور فى حنايا رأسـك هـذا الذى تعفنت خلاياه بأبخرة الخمارات ما العيب فى أن يتزوج الرجل امرأة لم يعرفها ولم يشاهدها لا ليلة العرس، هذا مـا فعلته أنا شخصا عندما تزوجت وقبلت راضيا تلك الإنسـانية التى ساقها القدر إلى كيف تسمى هذا رعبا أيها الفاسق الذى يقود الرجال إلى مخدع زوجته فى أعقاب كل ليلة كيف إذن نعصم أولادنا وبناتنا من الخطيئـة إذا نحـن سـمحنا لهـم بالتعارف والاختلاط وتبادل الغرام قبل الزواج مـاذا؟ هـل اسمعك تقول الحب؟ أى حب هذا الذى يريد رجـل وهـب

حياته للعهر مثلك أن نقدم الفضيلة قربانا على مذبحة وهـل هناك حب غير هذا الذى تبيعونه فى دكاكين الفسـق التـى تفتحونها كل يوم، أليس هذا هو الحب الذى تحكى عنه لا أيها الرجل الفسفورى إن هذا تحتفظ به لنفسك وتجعل منه تجارة كما تشاء، أما نحن فتأكد أنك تلفح بكل ما ترسله إلينـا مـن أشرطة العهر والخلاعة ومجلات العـرى الملونـة فـى أن نتنازل شعره واحدة عن ذلك الشرف الـذى ميـز سـلوكنا وأفعالنا، وسيظل الرجل فى بلادى على اسـتعداد لأن يقتـل ابنته على الفور إذا ما عرف أنها قد صدقت عهر أشرطتكم ومجلاتكم وأحبت من وراء ظهره ولدا.

لماذا تنظر إلى هكذا فى استغراب إننى لم أفقد رأسى بعد تعالى إلى هنا ، قالها فى حدة فاجأت عامل الملهى الذى لبى النداء مسرعا أحضر لى كأسا أخرى ولتكن هذه المـرة دابل.

كانت حصة الرقص قد انتهت، توقف الطبـل عـن النداء،وعاد الراقصون إلى أماكنهم فى حين كان مذيع الملهى يقدم الساحر الذى دخل إلى الساحة مهرولا، وبدأ فى الحـال ينشر مناديله ويخرج من جيبه أعدادا هائلة من الحمام، لكـن

شيئا آخر شدة عن الساحر ومناديله وحمامه فقد تبـين عنـد عودة الزبائن إلى موائدهم بعد الرقص، إلى أن قريبا منـه، وفى المائدة التى تواجهه مباشرة، قد جاء وجلس ولد وبنـت لعله قد رآهما منذ البداية لكنه الآن فقط يكتشف أنهـا ليسـا مجرد رجل ورفيقته فقد كانا والضبط طفلا وطفلـة، ومـاذا يمكنه أن يسمى ولدا فى السابعة أو الثامنة عشرة من عمـره وبنتا فى مثل سنة أو تصغره قليلا، ماذا يسميهما غير أنهمـا طفلان، كيف لا يستغرب " عبد ا " وجودهـا، وكيـف لا يتساءل فى نفسه عن سر ذلك الأب وتلك الأم اللذين يتركان طفلاً وطفلة فى سنهما يخرجان إلى الملهى فى هذه السـاعة من الليل.

تفرغ " عبد ا " تفرغا كاملا لهما، تنازل نهائيا عـن حصته فى الساحر، وعدل قليلا فى جلسـته لكـى لا يـرى مشهدا سواهما، كانت هى ترتدى فستانا بسيطا سماوى اللون يصل إلى ما فوق الركبة بقليل، ويرتدى الولد بدلـة سـهرة كاملة، غامقة اللون، تماما كما يفعل الرجال الكبار، وعدا عن ذلك الغبار الفسفورى الذى يجعل كل شئ فيهما مشرقا لامعا كغيرهما من رواد هذه القاعة، عدا ذلك فإنه ليس هناك شـئ

مثير حولهما سوى أن البنت جميلة، ذلك النوع من الجمـال الهادئ البسيط الذى ما أن تراه حتى تتذكر على الفور أجمـل ما قرأت من شعر وأجمل ما سمعت من موسيقى وكـل مـا وقفت أمامه منبهرا مـن مشـاهد الشـروق والغـروب أو البحيرات او الأنهار، وجهها تعلوه مسحة ملائكية تجعله أشبه بصورة أو رسم فى كتب الأطفال القصصية، لو فكر فى أسم لها لما وجد غير ساندريلا فهى لم تكن سوى تلك الصـغيرة خرجت لتوها من قلب الأسطورة.

والولد كان حقا طفلا، له ملامح طفل وعينـا طفـل وابتسامة طفل، عدا أنه فـى حجـم الرجـال وطـولهم، لا تتصوره بقوامه الممشوق إلا فارسا امتطى جـوادا مجنحـا يطوى به السحاب ليختطف حبيبة تنتظره هناك فـى شـرفة عالية ينيرها ضوء القمر، تماما كما فى أحلام الصبايا.

ورغم قربه منهما واستغراقه الكامل فى الاهتمام بهما فإنه لم يستطع أن يتبين ما يقوله هذان العاشقان الصـغيران لبعضهما البعض، بل هما فى الحقيقة لم يقولا شـيئا، كـان الواحد منهما يكتفى بكلمة واحدة أو همسة أو إشـارة لـيفهم الآخر كل شئ فيقوم من فوره يضحك فى سعادة لا مثيل لها

إلا سعادة صاحبه كان يراهما فى لحظات وقد استغرق كـل منهما فى الآخر استغراقا يبدو معه وكأن أحدا قد جاء وطرد من فوق الأرض كل الناس ولم يبق على أحد سواهما حتـى صارت كل هذه المدن والبحار والغابات ملكا لهما وحدهما لا يشاركهما فيها أحد، وكانت الدهشة تبـدو واضـحة علـى وجهيهما عندما ينتبهان إلى أن أحدا لم يفعل ذلك، وأنهما ليسا سوى زبونين فى ملهى يمتلئ بعشرات الزبائن وأن سـاحرا كان قد أفرغ ما فى جعبته من حيل وألعاب وما فى جيوبـه من مناديل وأرانب وحمام وانتهى من تقديم نمرته وان زنجيا عجوزا جاء إلى ساحة العرض يحمل طبلة وخمـس نسـاء عاريات إلا من ريش ملون طول يغطى بعضا من أجسامهن جئن لتقديم عرض راقص ومع ذلك فالعاشـقان الصـغيران سرعان ما يعودان إلى بعضهما، يضحكان معـا ويتبـادلان الدهشة والاستغراب لكل ما يشاهدانه كأنهما يعيدان اكتشاف العالم معا، كأنهما حقا أمير خرجا للتو من كتاب الأسـطورة فوجدا عالما جديدا يثير فيهما الدهشة والفضول بد واضحا أن كلا منهما سعيد بالآخر سعادة لاحد لها كأنهما ذاقـا عـذابا شديدا قبل أن يلتقيا معا بل إن عبد ا أحسن بـذلك الطبـل

الذى عاد الآن يبعث بإيقاعات ويروى ما عنده من حكايات، أحس بذلك الطبل الذى عاد الآن يخبره عنهما وأنهما لم يكونا من قبل غر عجوزين أعياهما الزمن فتحـولا علـى الفـور لحظة اللقاء إلى ولد وبنت فى شرخ الصبا والجمال، وأنهمـا لو افترقا لحظة واحدة عن بعضهما لعادا من جديد شـيخين هرمين أو لتبخر كل منهما واختفى فجأة من الدنيا، ويصـدق ما يقوله هذا الطبل ولا يتصور أن يبقى أحدهما بعيدا عـن الآخر، حتى لو كان بعيدا فإن عليه أن يأتى من آخر الـدنيا بأقصى ما يستطيع بحثا عن صاحبه حتى يلقـاه وإلا فإنـه سيسقط ميتا فوق الأرض، أو يتبخر كماء النار فى الفضاء أو يجد أن ا قد مسخه فأرا أو أرنبا أو سلحفاة أو نملـة وأنـه لاخلاص له إلا بلقاء الآخر وأدرك "عبد ا " أنه الآن يشاهد حبا حقيقيا، تبخرت من ذهنه تلك الصورة التى كان يرسمها عن الحب تأكد له جمال وروعة أن يحب الانسان، إنـه الآن على يقين كامل بأن من يعرف مثل هذا الحب سـوف لـن يجرؤ المرض عل الاقتراب منه لن يعرف الفقر أبـداه ولا الجوع، بل هو لن يعرف أبدا الموت، تأكد فى ذهنـه أنـه حتى المطر الذى تركه يهطل بغزارة خارج الملهى سوف لن

يجرؤ على أن يبلل شعرهما أو ثيابهما عندما يغادران المحل لأن المطر يعرف أنهما يحبان، لن يؤديهما البـرد أو الحـر لأنهما يحبان،لن يمنعهما أحد من الـدخول إلـى المطـاعم والمقاهى والأندية والاستمتاع بالأكل والشـراب والمشـاهدة مجانا لأنهما يحبان، لن يحتاجا إلى دفع تذاكر المواصلات أو إيجار البيت الذى يسكنانه أو ثمن ما يشتريانه من المتـاجر لأنهما يحبان إنه الآن فقط بدأ يعى فداحة أن يحيا الإنسان بلا حب، فداحة أن يمضى العمر سجين بيئة تسمى الحب فجورا، وتصدقها أنت فى ذلك ولا تهتدى إلى ما فى قولها من زيف وبطلان إلا بعد فوات الأوان إنه الآن فقط يكتشف مدى مـا كان فى حياته من قبح، وأنه لم يمارس فى يوم من الأيـام إنسانيته، وأنه قد تحول منذ زمن طويل إلى سلحفاة أو نملـة أو فأر،وتأكد له أن كل ما أصابه فى حياته مـن مـرض أو صداع أو أرق أو حمى إنما أصابه لأنه لم يحب، وكل ما ألم به من هموم ورزايا وأحزان إنما ألم به لأنه لم يحب وعندما كان ينهزم فى العراك وهو صبى إنما ينهزم لأنه لـم يحـب حتى عندما كانت تبلله الأمطار أو يؤديه البرد وقيظ الشمس أو يكتب له رئيسه فى العمل رسالة إنذار أو يطالبه الدائنون

بدين كان ذلك يحدث لأنه لم يحب، بل إن الموت نفسه عندما يأتيه فهو لا يأتيه إلا لأنه يعرف أن "عبد ا " عـاش حياتـه كلها لم يهتد إلى هذا الحب.

ولأول مرة يكتشف كيف أن أعوام الصبا والشـباب تسربت من بين أصابعه كالماء دون أن يفعل بها شـيئا دون أن يعرف بهجة يوم واحد من أيامها، عاشها بمثل ما يحياها رجل عمره مائة عام.

وأصابه فجأة رعب حقيقية، فقد تذكر لتـوه أمـرا خطير أمرا عاش طوال عمره لم يتنبه إليه إلا الآن، هنا فى هذا الملهى الليلى، فى هذه البلاد الغريبة، وفى حضور هـذا الطبل وهذين العاشقين الصغيرين، الآن فقط يكتشف، أنه لم يتعلق خلال أعوام عمره التى وصلت الأربعين،ولـو لمـرة واحدة،رسالة غرامية وبدا له أنه لو حدث مرة واحدة وتلقـى مظروفا معطرا مكتوبا من أنثى تحبه، حتى لو لم يكن حبـا حقيقيا، حتى لو كان مجرد طيش ووهم كاذب، لو حدث ذلك لم تعذب الآن كل هذا العذاب،ولتغير وجه الكـرة الأرضـية بأجمعها.

وكأنما خشى أن يكون أحد الناس قد عـرف سـره، فأدار رأسه فى وجل يمسح المكان بنظراته، لم يكن ثمة أحد ينتبه إليه،كان الجميع يغطيهم ذلك الغبار الفسفورى، رجـال ونساء يتهامسون ويترشفون شرابهم ويتابعون العرض، وولد وبنت نسيا العالم من حولهما وتاها فى دنياهما، واطمأن إلى أن أحدا لا يعرف أمره إلا أنه أفاق فجأة إلى أن أحد يناديـه الآن باسمه، وأدرك على الفور أن ذلك ليس سوى هذا الطبل اللعين الذى يأبى أن يتركه هذه الليلة يمضى إلى حاله، فقـد تحول الآن إلى سرد قصة رجل أضاع العمر سـدى، تنكـر لحاجاته الإنسانية وندائه الداخلى واستسلم طائعا لقهر مجتمع التقاليد، وإرضاء لهذا المجتمع ارتدى قناعا ظنه مـع طـول المدى وجها حقيقيا ومضى يمارس حياته على هذا الأسـاس وعندما أفاق يوما إلى نفسه وأدرك أن هذا القناع ليس وجهه، وأراد أن يعود إلى وجهه الحقيقى، اكتشف أنه لم يعد له وجه على الإطلاق،وعرف على الفور أن الطبل لم يكـن يقصـد أحدا سواه وأنه الآن يعيره بكل يوم مر من حياتـه يكتشـف أمام الناس سره ويظهره عاريا بلا لباس ألا ينتهى هذا الطبل اللعين ويصمت إلى الأبد لكن الطبل لا يتوقف إنـه يمضـى

متدفقا يسرع فى الإيقاع ويبطئ مرة أخرى يثور أحيانا ويهدأ أحيانا أخرى وهو معه يصعد ويهبط، يقذف به لاطبل حتـى يخترق السقف ويرمى به أشـلاء فـوق الأرض حـاول أن يغمض عينيه كل كيانه ويثير بداخله امواجا من العذاب الذى لاحد له ولأمر ما تحول كل غيظه غلى هذا الولد وهذه البنت اللاذين يجلسان أمامه، كأنهما المسؤولان وحـدهما ولا أحـد غيرهما، عن كل ما أصابه من تعاسة، عن كل خيبة العمـر التى منى بها لقد ظن نفسه دائما رجلا ناجحا، احتل بفضـل اجتهاده مناصب يحسده عليها الناس، وتم اختيـاره منـدوبا لبلاده لدى مؤتمرات دولية كبرى، حتى جاء هنا هذه الليـل ليجد ولدا وبنتا خارجين عن كل أدب وذوق ومسلك شريف، يمزقان فجأة كل الأردية لتى تغطيه، يهدمان كل الأبنية التى شادها ليحتمى بها، ليكتشف أن كل ذلك لم يكن سوى وهـم وكذب وفكر لو أن فى جيبه مسدسا الآن لـم تـردد لحظـة واحدة فى أن يطلق عليهما النار حتى يراهما قد ماتـا إلـى الأبد.

أى حظ هذا الذى جاء بكما، ولم يجد لكما مكانـا إلا هذا المكان، ولم يجد لكما مائدة تجلسان إليها غير هذه المائدة

التى تقع مباشرة أمامى، بل لماذا لم تختارا ليلة أخرى تأتيان فيها إلى هذا المكان، وتمارسان العهر الذى تمارسـانه كمـا يشاء لكما الغرام، ألا يكون أحدهما أو كلاهمـا طرفـا فـى مؤامرة تدبرها ضدى هذه المدينة التى أقضـى بهـا ليلتـى الأولى. أليس لأحدهما أب حازم يأتى الآن على الفور ويجره إلى الخارج وينهال عليه صفعاً وركلاً وشتما ويمنعه من أن يرى الآخر إلى الأبد.

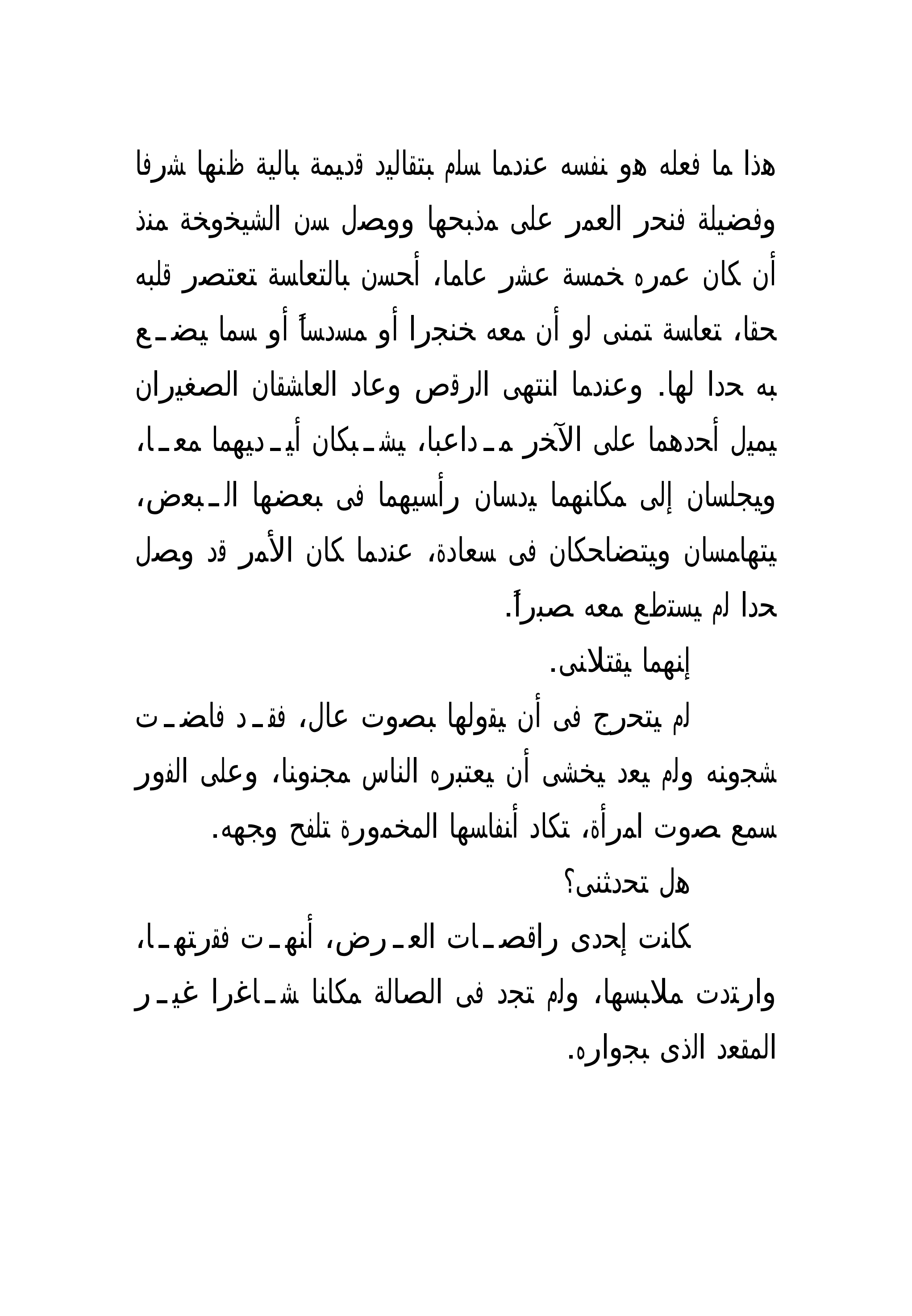
فجأة رأى الولد والبنت يقومان، وعرف أن حصـة للرقص قد جاء أوانها الآن، أخذ الولد البنت وذهبا إلى ساحة الرقص، كان يمد ذراعه حول خصرها الذى بدا ناعما لينـا ويحتويه برقة كأنه يخشى عليه الكسر.مصى كل لأنثاه، ولـم يبق إلا هو، لا لا تنتظر منى أيها النادل أن أخبئ نفسى تحت المنضدة أو أذهب لأختفى وراء إحدى الستائر، ليس لدى ما أخبيه بعد أن قال الطبل كل شئ، وخذ أنت أيها الولد فتاتـك وتمخطر بكل ما فى الدنيا من زهو وكبرياء لايهم، وليضـع كل منكم أيها الراقصون رأسه فى حضن أنثاه ويرقص، فأنا فقدت قدمى منذ زمن طويل، ألا تعرفون أننى أزحف زحفـاً وضحك لهذا الخاطر ثم ارتفعت ضحكته حتى صارت قهقهة

ارتعب لها عامل الملهى الذى كان يقف قريبا منه فابتعد على الفور، مضى يتابع الراقصين فى فضول، كانت "ســاندريلا" تستسلم لأميرها وتضع رأسها على كتفه مغمضــة العينــين كأنها تأخذ إغفاءة لذيذة، وكان هو أيضا قد توسد كتفها وأسبل رموش عينيه ثم مغمضة العينين يميل كل منهما نحو الآخر، ثم ضاعت ملامح كل منهما فى ملامح الآخر، ضاع شــعره فى شعرها، فى عينيه وأنفه فى أنفها،ذابا فى بعضهما البعض وامتزج لون ردائها الأزرق بلون بدلته الغــامق، وضــاعت الشفاه فى الشفاء والصدر فى الصدر وصارا كيانــا واحــدا ونسى هو نفسه معها، إنه الآن ليس سوى كيان ثالث انضــم إليهما وامتزج بهما وتداخل فيهما فلم يعــد يــذكر الصــالة الفارغة إلا منه، ولا عمال الملهى ولا الطبل الذى يناديه، لا يذكر شيئا سوى روحه التى توحدت مع روحيهما، وأدرك أن مسألة أن يقبل الولد بنتا ليس كما كان يعتقد جرما يســتحقان عليه القتل، فها هو يراهما الآن فلا يحس بــأى حــرج، إن ذرة فى كيانه لم تستنكر ما يفعلانه الآن بل بالعكس من ذلك بدا واضحا أنهما يمارسان طقسا من طقوس العبــادة فهــذه

القبلة التى رآهما يمتزجان فيها روحا وكياناً لم تكـن سـوى "صلاة" سوف يباركها ا وتفرح لها الملائكة فى السماء.

حاول أن يكذب نفسه، حاول أن يقول لنفسه بأن هذا حقا جريمة ضد الخلق، وأن عليه كرجل يراعـى الأصـول والأخلاق أن يستنكر بقوة مثل هذا المشهد. لكنه لم يسـتطع فما رآه كان حقا وصدقا صلاة، وإن كان يندم على شئ فـى الدنيا فعلى هذا العمر الذى ضاع دون أن يصـلى وعنـدما جاءه ذلك الهاتف يقول له.

ليس لدينا الحب، ولكن لدينا الفضيلة ضحك من نفسه لهذه الفضيلة التى يظنها الجميـع فرسـا سـوف يركبونهـا لتخترق بهم لهيب النار وتلقى بهم على الفـور بـين أيـدى حوريات الجنة ومن قال أن هذا الحب ليس فضيلة، من قـال إنه ليس فضيلة أن تحب الولد بنت وأن يقبل كل منهما الآخر وأن يذهبا معا إلى المرقص وأن يأخذ كل منهما الآخر بـين ذراعيه يرقصان معا ويغنيان معا ويحلمان معا وينـام كـل منهما على كتف الثانى بل لعل الامتناع عن ذلك هو بعينه ما يغضب ا ، وأن أكبر الكبائر أن يمنح ا الإنسـان شـبابا وصبا فيرفض كافرا بنعمة ا هذا الصبا وهذا الشباب أليس



هذا ما فعله هو نفسه عندما سلم بتقاليد قديمة بالية ظنها شرفا وفضيلة فنحر العمر على مذبحها ووصل سن الشيخوخة منذ أن كان عمره خمسة عشر عاما، أحسن بالتعاسة تعتصر قلبه حقا، تعاسة تمنى لو أن معه خنجرا أو مسدساً أو سما يضـع به حدا لها. وعندما انتهى الرقص وعاد العاشقان الصغيران يميل أحدهما على الآخر مـداعبا، يشـبكان أيـديهما معـا، ويجلسان إلى مكانهما يدسان رأسيهما فى بعضها الـبعض، يتهامسان ويتضاحكان فى سعادة، عندما كان الأمر قد وصل حدا لم يستطع معه صبراً.

إنهما يقتلاننى.

لم يتحرج فى أن يقولها بصوت عال، فقـد فاضـت شجونه ولم يعد يخشى أن يعتبره الناس مجنونا، وعلى الفور سمع صوت امرأة، تكاد أنفاسها المخمورة تلفح وجهه.

هل تحدثنى؟

كانت إحدى راقصـات العـرض، أنهـت فقرتهـا، وارتدت ملابسها، ولم تجد فى الصالة مكانا شـاغرا غيـر المقعد الذى بجواره.

- لا كنت فقط أحدث نفسي؟ مـاذا يعنيـك؟ لمـاذا تدسين أنفك فى شؤونى كان رقصك جيدا على أى حال انـا فقط كنت أحدث نفسى.

كان واضحا أن السكر قد بلغ منه حدا خطيرا

ثمة من يريد قتلى هذه الليلة، أنت لا تعرفين ذلـك، ولكنهم يريدون قتلى، إن هذا لا يعنيك فى شيء، لكن لمـاذا أنت تجلسين هنا أوه لا، لا لم آت إلى هنا بحثا عن النسـاء، إننى رجل صاحب مبادئ، إنها تمنعنى من ذلك أعذرينى.

كانت هى تنظر إليه باندهاش فى حين مضى يتكلم

هل أقول لم سرا؟ هل تعلمين أننى لم أتلق فى حياتى رسالة غرامية واحدة هل قابلت فى حياتك رجلا لم يتلق ولو لمرة واحدة رسالة غرامية طوال عمره ولهـذا السـبب إن أحدهم يريد قتلى هذه الليلة بل لعله قتلنى فعلا أنظـرى فـى عينى هل أنا قتيل؟

هل أنت بخير

بخير لكن لا شأن لك بى أقول لك، كما لا شأن لهذا الطبل اللعين بقصة حياتى التى جاء يرويها على مـلأ مـن الناس لقد عرفت منذ البداية أن شيئا يـدبر لـى فـى هـذا

المكان،لكن لم يخطر أبدا على بالى أن التى ستقلتنى هـى " ساندريلا" بلحمها ودمها ...

كان الولد يأخذ فتاته الآن ويغادران المكان ومدة يده إلى الكأس فمنعته

إنك شربت بما فيه الكفاية ماذا بك إنك ترتعش

كانت قد مدت يدها تحسس جبينه، ولـم يعـارض، أدركت على الفور أن الرجل محموم، أشارت إلـى عامـل الملهى أن يأتى ليحاسب الرجل، ويساعده على النهوض.

إن عليك أن ترتاح فورا، إن لدى بيتا قريبا، ولامانع أن تأتى معى.

وبلا وعى قدم إلى عامل الملهى حسابه، بلا وعـى ارتدى معطفه،وبلا وعى اتكأ عليها ومضى يلوك الكلمات.

تصورى، رجل فى مثل سنى، لم يتلق فـى حياتـه رسالة حب واحدة !!

عبرا سويا باب الملهى الذى تغطيه ستارة حمراء إلى الممر الخارجى، وما أن لامح أمامه الشارع فارغا موحشـاً يتوجع تحت زخات المطر حتى قال لابد لأحد ما أن يحبنـى هذه الليلة.

كان يقولها بلهجة من يعرف أنه بعد قليل سوف يسقط ميتا تحت المطر إذا لم يجد أحدا يحبه هذه الليلة.

وكأنما أدرك لأول مرة أن التى بجواره الآن امرأة فمضى يتوسل إليها قائلا:

أحبينى، أرجوك أن تحبينى، لا تتركينى أموت كما تموت الفئران والنمل والسلاحف، أحبينى مرة واحدة، لا أسألك حبا يدوم إلى الأبد، أحبينى فقط هذه الليلة هذه الليلة هذه الليلة

كانت الدموع تطفر من عينى عبد ا دونما حرج والطبل الذى رافق سهرته هذه الليلة ما زال صداه يصل إليه فى الشارع، لم يكن هذه المرة يرسل الغناء، لم يكن يسرد القصص أو يحكى الأساطير القديمة، لم يكن يحمل نداء القبلية الأفريقية إلى ابنها الذى تاه فى الغابات، فقد أدركت القبيلة الآن أن ابنها قد وقع فريسة للنمور، وأنه لا سبيل إلى خلاصه، وأن قد انتهى إلى الأبد ولن يعود، فانهمرت الأكف ترتمى على الطبل الذى مضى هذه المرة يرسل بكاء مرا تحمله الريح والمطر إلى أقصى بقاع الدنيا.

اختفت النجوم فأين أنت

عادت إلى الذاكرة كلمات أغنيـة شـعبية تعـود أن يغنيها قديما مع رفاق الشراب فى نزهاتهم خـارج المدينـة، تحكى عن نجوم الليل التى اختلفت والحبيبة التـى ضـربت لحبيبها موعدا ولم تأت أحسن بفرحة الاهتـداء إلـى هـذه الأغنية، فمضى من فوره يدندن بها، وقد تنبه فجأة إلى أنـه موهوب فى الغناء وأن لصوته جمالا خاصا لـم يكتشـفه إلا هذه اللحظة.

كان قد فرغ لتوه من احتساء كأسين مع صاحب لـه يسكن هذه الضاحية تعود كلما توفر لديه شئ من الخمـر أن يدعوه لجلسة شراب عنده، ولأن البيت ليس بعيدا والقمر يكاد يكون شمسا، وركوب السيارة وهو على تلك الحالة مغـامرة ليست مأمونة العواقب، فقد فضل أن يترك السيارة أمـام دار صاحبه وأن يقطع المسافة إلى بيته سيرا على الأقدام.

وصل فى طريقه إلى أرض خلاء، تصـور علـى الفور أن هذه الأرض الخلاء بهو كبير، صالة للرقص فـى قصر ملك يحكم نصف العالم، راودت الملك رغبة عنيفة فى أن يرقص، الآن فى غيبة الحراس والحاشية لابد أن يستمتع

الملك بانفراده ويتحرر قليلا من القيود والمراسم والأقنعة ليرقص فى تهور ومجون الشياطين أو يقفز فى الهواء كالأطفال أو يحجل على قدم واحدة أو يمشى على يديه بدلا من قدميه نشر ذراعيه فى الهواء ودار حول نفسه مغنيا دورات سريعة وكثيرة حتى كاد، فلم يتحرج من الضحك بصوت عال، اكتشف بعد لحظة أن القمر يقع تماما فوق رأسه فراودته رغبة ملكية فى أن يلمسه بيده، قفز فى الهواء قفزات عالية، لم يطله فاعتبر أن الأمر كله مجرد نزوة عبارة من نزوات الملوك وتخلى عن المحاولة مضى يعير الأرض الخلاء فى خطوة أشبه بالرقص محاولا جهده أن تتفق خطاه مع إيقاع الأغنية التى يدندن بها.

طاحوا نجوم الليل

ولدهشته الشديدة اكتشف فجأة أن امرأة،لابد أنها تسللت خلسة إلى البهو الملكى،وأنها تقف الآن بمحاذاته، ترسل ضحكة مثيرة ترن فى جوف الليل كأنها الجرس،لابد أنها الملكة جاءت الآن تفسد عليه متعة الاختلاء بنفسه قليلا، لكنه سرعان ما أفاق إلى أن ذلك ليس لعبا أو هزارا، إنما هى امرأة حقا وصدقا تقف الآن فى مكان ما قريبا منه

وتضحك فى خلاعة واستهتار تبخرت مـن رأسـه أبخـرة الخمر، لابد أنها رأته وهو يقفز فى الهواء كالمجانين، ويدور حول نفسه ويضحك عالى كالمعتوه، تسمر فى مكانه مندهشا، وحنجرته صارت الآن خشبا فلم تعد تقوى على الغناء وأحس بالخجل جليدا يسقط على قلبه فطلب من ا أن يمسـخه الآن فأرا، لكنه قبل أن يتحول إلى فأر سمع المرأة تناديه مـن أى ثقب فى الأرض خرجت هذه الداعرة فى هذه السـاعة مـن الليل،كان صوتها أنثويا، حادا فى أنوثته وهى تناديه باسـمه فى الحاح بلهجة من يدعوه بلا خجل إلى خلوة آثمة ويطلـب منه فى صراحة ارتكاب فعل فاحش، أدار عينيه فى اندهاش نحو مصدر الصوت لم يكن هناك أحد على الإطلاق، التفت فى ذعر إلى اليمين وإلى الشمال خلفه وأمامه لم يجـد أثـرا لكائن من كان فأحس بالموت قطرانا أسود يصعد الآن مـع ساقيه،ونداء المرأة واضحا قريبا فى صوت أشـبه بـالهمس الجمهورى يمتلئ غنجا وإغراء وجنسا لم يستطيع أن يحدد له مصدرا لكنه ياتى فى مكان قريب لا يبعد عنه سوى خطوات قليلة، تبين فى ضوء القمر الأبنية البعيدة،وبقايا جذوع أشجار تناثرت فى الأرض الخلاء التى كانت منـذ زمـن مزرعـة

وصارت الآن أرضا تباع لأغراض البناء، لكنه لم ير أثـرا لأى كائن بشرى، وبيته ما زال بعيدا، والموت قطرانا أسود يصعد من قدميه إلى ساقيه ويغطى ركبتيه ويصيبها جميعـا بالشلل، ونداء المرأة قريبا ومثيرا ومخفيا يأتيه فـى صـوت أشبه بالفحيح، تدعوه باسمه مجردا بل هى تختـرع لاسـمه طرقا جديدة فى نقطة وتفنن فى تدليله بها كأنما تربطها بـه علاقة حميمة وقديمة، وتلمح فى الدعوة كأنها انتظرته منـذ أمد طويل وأعدت نفسها له ولم تجد مناسبة أفضل من هـذا الخلاء والليل، وضوء القمر كى تأتى إلى ملاقاته، وقف وهو لا يقوى حتى على البكاء ينظر فى بلاهة إلى أعلـى وإلـى أسفل لعل الصوت يأتى من ثقب فى الأرض لعله يأتى مـن ثقب فى السماء ظل مغروسا إلى نصفه فى القطران الأسـود لا يدرى ماذا يفعل والمرأة ذات الصوت الداعر تتعرى دون حياء، تخلع الثياب قطعة قطعة عن ذلك الجسد الهيلينى الذي لا يراه، استبدت بها الشهوة فجاء نداؤها أكثر الحاحـا كأنـه العواء، زلزل الرعب قلبه، فكر فى أن يصرخ أو يستغيث أو يجرى هاربا، لم يكن يقوى على الحركة ولا علـى الكـلام، تجمد كتمثال من الشمع فى مكانه والموت سيل من القطران

الأسود يصعد مع بدنه وسيصل بعد لحظة واحدة إلى عنقـه، وهى ترفع عقيرتها تناديه دونما حرج، وأحس بأنفاسها قريبا منه تلهب جبينه، وعطرها نفاذا يملأ خياشيمه، وجسمها الذى يحترق الآن بالرغبة والعواء يرسل صهدا لافحا يجعل العرق ينز من عنقه، ثم فجأة بدأت نبرات الصوت تكتسـب لهجـة حانقة، أكثر حدة وغضبا، بدا واضحا أنها الآن تجرب معـه مسلكا أخر، فهذه الملكة التى وقفت دهرا أمام المرأة تمشـط شعرها وتضع زينتها وعطورها حتى جاءت هذه الليلة التـى ينيرها ضوء القمر تفتح له ذراعيها وتمنح له نفسـها هبـة خالصة وعطاء سمحا، هذه الملكة أصابها الآن الذعر وهـى ترى الرجل الذى اختارته من بين كل الرجـال فـى الـدنيا ومنحته نفسها يتأخر الآن فى قبول دعوتها، فجـاء صـوتها مزمجرا غاضبا يصدر الأمر لم يعد الصوت نظـرة حالمـة وذراعين ممدودتين ترحبان به فى شوق ولهفة ورأسا يتكـئ على الكتف فى غنج ودلال، استوت الملكة فى وقفتها ورفعت رأسها فى عنجهية وكبرياء وصارت تصدر الآن أوامرهـا الملكية. أحس بخطورة الموقف تمنى أن تواتيه القدرة علـى الكلام أو البكاء أو الحركة عله يسـتطيع أن يركـع فـوق

الأرض قريبا منها ويقسم بالرسل والأديان أنه خادم مطيـع فى بلاطها وأن كل ما فى الأمر أنه قاصر عن رؤيتها عاجز عن معرفة مكانها، لكن القطران الأسود يغمر كل بدنه فلـم يعد قادرا حتى على التنفس، لا يعرف للصوت مصـدرا ولا يرى على مرمى البصر أحدا، ولصوت يزداد انفعالا وتنمرا تهديدا ووعيدا، غضبا ملكيا عنيفا يتفجر به صوتها كأنه لـو تأخر عن تلبية النداء دقيقة واحدة فإن أمرا مهـولا سـوف يحدث يدا تحمل سوطا منقوعا فى الملح سوف تمتـد بعـد هنيهة تجلده على وجهه وقفاه حتى الموت، مسدسـا يظهـر فجأة أمام عينية ويغمر جبينه بالرصاص، لغما سوف يتفجر بعد لحظة واحدة تحت سيملأ الدنيا طوفانا أو يغمـر الأرض صواعق وزلزلا أو يشعل حريقا هائلا فى العالم كله، إن لـم يذهب الآن إليها ويرتم بين أحضانها.

أدرك انه هالك لا محاولة، وأن القطران الأسود قـد وصل إلى عنقه ويغمر الآن فمه وأنفه وعينيه وأذنيه وجبينه، وأنه يواجه الآن موتا محققا لا ريب فيه، وقبـل أن يغيـب تماما عن الدنيا سمع الصوت فجأة يتلاشى ويبتعـد، انتشـل رأسه بسرعة من القطران، وقف بدهشة يراقب الصوت وهو

يأتى خافتا، ضعيفا أصابه الوهن والإعيـاء، اختفـت فجـأة لهجته الآمرة المتوعدة الغاضبة المنذرة، وصار الآن منكسرا وأهن بعيدا، لم يعد أمرا وتهديدا كذلك فهو لم يعـد إغـراء وغنجا ودلالا، إنه الآن أصبح أشبه بالاستغاثة، كأن صاحبه النداء تواجه الآن هلاكا محققا، فجاء الصوت وجلا مذعورا باكيا مستعطفا يطلب النجدة، كأنها الآن وحيدة فـى غـرض البحر يحاصرها موج متوج شرش ويهددها بـالموت غرقـا وهى تستنجد فى ضعف وخوف بهمة الرجل كـى يسـرع لإنقاذها، فمها الآن يمتلئ بالماء ومن خلاله يأتى النداء ناشرا فقاقيع فى الهواء أشبه بالقرقرة، ولأمر ما أحس وكأن هـذا الصوت الذى يأتى من خلف لجج البحر قريبا ولكنه بعيد فى ذات الوقت، هذا الصوت الذى يأتى ناعمـا واهنـا ضـعيفا مستنجدا باكيا، وقد اختفى منه أى أثـر للجـنس والاغـراء والأنوثة، هذا الصوت بدا الآن وبعد ان زال خطـره كأنـه صوت امرأة يعرفها، إنه الآن وقد أحس بالنجاة واستعاد شيئا من السيطرة على مداركه يستطيع أن يرى كيـف أن هـذا الصوت مألوف لديه ألفة غير عادية، إنه لا يذكر الآن مـن هى، لكنه يعرف هذا الصوت معرفة غير عادية، ويثير فـى

نفسه شجونا قديمة كأنه عاش عمرا كاملا فى حبها، حقا إنه لم يخض فى حياته أى تجربة عاطفية، ولم تكن له فى يوم ما علاقات نسائية،والمرأة الوحيدة فى حياته عدا نساء العائلـة هى التى رآها ليلة أن جاءوا بها لتكـون زوجـا لـه وأمـا لأطفاله، لكن هذا اليس صوتها، لعلها كانت شـيئا غامضـا يحيا فى خياله، أو امرأة ترددت عليه فى أحلامه أو صـوت إنسانة ما تبادل معها الكلام من خلاف الأبـواب والتصـق صوتها بذاكرته أو واحدة من النساء اللائى كان يراهن عندما كان طفلا لا حرج من دخوله مجتمعات النسـاء،وعاش فـى ضميره حتى جاء هذا النداء بعيده إلى منطقة الوعى، اختفى من قبله ذلك الشعور بالهلع وحلت مكانه رغبة حقيقيـة فـى إنقاذ المرأة الغريقة، تصور لوهلة صغيرة أن هـذا الخـلاء صار حقا بحرا وهم بأن يغمض عينيه ويقذف بنفسـه علـى الفور بين أمواجه إلا أن الأرض الخلاء سرعان ما عـادت خلاء كما كانت، وصوت المرأة الذى يأتى كأنه القرقرة صار يتلاشى شيئا فشيئا حتى اختفى تماما.

وقف فى مكانه مشتت الـذهن، مضـطربا، يحـس بالتعب والإرهاق كأنه قطع مسافة ألف ميل عدوا، وأنه فجأة

صار هرما وأسه لابد قد اشتعل الآن شيئا، واكتشف أن أطرافه ما زالت ترتعش كأنه أصيب منذ لحظة بالحمى، ظل مزروعا وقد اختفى من نفسه كل أثر للحظات الرعب التى عاشها، حل مكانه شعور عميق بالأسى والخجل، لقد وقف عاجزا حين كانت المرأة التى أحبته تموت غرقا، كأنه أصيب منذ لحظة بالحمى، ظل مزروعا وقد اختفى من نفسه كل أثر للحظات الرعب التى عاشها، حل مكانها شعور عميق بالأسى والخجل، لقد وقف عاجزا حين كانت المرأة التى أحبته تموت غرقا، كأنه قد تواطأ ضدها، وتآمر مع البحر على إغراقها، حاول أن يوحى لنفسه بأن ما رآه لم يكن إلا خيالا، حالة انتابته أشبه بالكوابيس أثناء النوم، وأنه تحت تأثير كتاب عن الأساطير انتهى منذ زمن من قراءته، وأن أبخره الخمر فى رأسه والخلاء من حوله وسكون الليل وهدوءه ساهمت فى تجسيد هذا الخاطر المزعج الذى مرق بذهنه، لكنه كيف يصدق ذلك وقد كان فى تمام يقظته وهى هنا تناديه، صوتها يملأ الزمان والمكان، عطرها ما زال فى أنفه، وأنفاسها الحرى كانت منذ هنيهة تلفح جبينه، إنه على يقين كامل بأن امرأة تعشقه وتحبه قد ماتت منذ لحظات غيلة

وغدرا لأنه لم يكن شهما بما فيه الكفاية يلبـى دعوتهـا أو يذهب بعد ذلك لانقاذها، امرأة هى بلا شـك أجمـل نسـاء المدينة، وأكثر هن فتنة وإغراء وسحرا وولها وحبا للحيـاة، اختارته من بين كل الرجال لهذه الليلة تزينت بكامل زينتها وارتدت لباس نومها ووقفت بقوامها الفارع الطويـل الـذى يتفجر أنوثة وقد تهدل شعرها الفاحم السواد وتنـاثر كنسـاء الغجر فوق كتفيها، تنتظر قدومه وتحرك فما شـهيا بحجـم الخاتم تنادى أسمه، لابد أنها أدركت جدب حياتـه وقسـوتها وصحراوية التقاليد التى تربى عليهـا وجفافهـا، وأرادت أن تعوض هذه الليلة حرمانه، وتسقى كالغيث قفر حياته، ولابـد أنها استغربت أن ترى رجلا منحته هذا الفيض مـن حبهـا، عاجزا عن تلبية دعوتها، وغمر الغضـب وجههـا بغبـار كالنمش زاد ملامحها عذوبة وحسنا، فتوعدت وهـددت دون فائدة ولا جدوى وأدركت أن ذلك علامة خلل أصاب الكون، وأن كارثة محققة سوف تلحق بها، فاسـتنجدت بـه باكيـة مستعطفة حتى اللحظة الأخيرة، وكان هـو يقـف عـاجزا، جبانا، مريضا بالحمى، يملأ قلبه الرعـب، ويأكـل رأسـه الشيب، لا يقوى على تقديم شيء، وغمره إحساس بالضـآلة

واحتقار الذات، لماذا لم تختر أحدا غيرى يكون أعظم نـبلا وشجاعة، وسيما وجريئا وشـهما وقـادرة علـى الاقتحـام والمغامرة فارسا من الفرسان لا فأرا ذميما مذعورا مغموسا فى القطران مثلى.

وفجأة تذكر شيئا، لقد كان يغنى عندما جاءت إليـه، ألم تكن الأغنية تحكى عن النجوم التى اختفت والحبيبة التـى اختفت والحبيبة التى ضربت لحبيبها موعدا ولم تأت، أتكون هى بذاتها البطلة التى تخاطبها الأغنية جـاءت تمامـا فـى موعدها وتنفيذا للعهد الذى قطعته على نفسها.

أتكون قد سمعت الأغنية فهرولت إليه مسرعة تلبـى النداء وتنفى عن نفسها التهمة الظالمة بأنها خالفت الميعـاد، وتقول أنها مازالت وفيه مخلصة صـادقة، تحبـه وتريـده وتشتهيه، وإنها لا تكذب أبدا أيكون هو الذى كان نذلا وكاذبا لا يحفظ عهدا ولا وعدا.

أيكون الأمر حقا كذلك؟

ولكن الفائدة الآن، لقد انتهى كل شئ، وسواء كان ما حدث حلماً أو حقيقة، سواء كانت تلك التى خرجت للقائه فى ضوء القمر أنثى حقيقية من دنيانا أو روحا هائمة فى الفضاء

من عالم أخر،أو أنها كانت جنية خرجت من قصـر والـدها الماك وجاءت إليه، فإن يقينا كاملا كيقينه بأن الأرض تدور، وأن الليل يعقبه النهار، وأن ا واحد أحد، يقينا يملأ عليـه علقه وقلبه بأن امرأة فى مكان ما من شاطئ بلاده الطويـل، امرأة فى شرخ الصبا والجمال، كانت فـى تلـك اللحظـات تواجه الموت غرقا وكان هو يقف محمومـا مغروسـا فـى القطران عاجزا عن انقاذها وأنه سيقرأ غـدا فـى صـحف الصباح خبر موتها لا محالة، ودون أن يدرى اخـتلج بدنـه بالرغبة فى البكاء، فلم يقاوم هذه الرغبة، انكفأ فى مكانه فوق الأرض، وطفق من فوره يبكى ... بكاء أشبه بالنحيب.

اربطوا أحزمة المقاعد

أنا ذاهب لأرتاح

فـى عروقـى يجـرى دم بـارد متخثـر كميـاه المستنقعات... وفى مكان ما من هذا العالم سـأجد راحتـى وعلاجي!.

أنا ذاهب لأرتاح..

والسهول البيضاء تمتد عريضة متماوجة لا يحـدها البصر.. امتلأت بحيرات زرقاء، وانتصبت فى منخفضـاتها خيام بيضاء وارتفعت فوق أرضها سلاسل من الجبال التـى يغطيها الثلج.

وأنا ذاهب لأرتاح..

قطعت تذكرة سفري، ووقفت على سـلالم الطـائرة أنشر منديل وداعي، وأعجبنى مقعد بجوار النافـذة جلسـت إليه.. الذى أعجبنى أكثر أن جارتى فى المقعد امـرأة بـلا زوج ولا أطفال... مسافرة وحيدة وأنا م سافر وحيد، ربطت حزام مقعدي... ثم أغمضت عينى أحلم بالجارة الجميلـة... ارتفعت الطائرة ودفنت نفسى فى السحب.

أنا فوق السحب، والسحب تتلون وتتغير تصنع عوالم وتهدمها. وأنا أصنع عوالم ولا أهدمها.

نظرت إليها.. كانت تسبح بنظرة هائمة فى مجتمـع الطائرة، كان كتفها يسيل شهياً مغريـاً.. خلعـت الجاكيتـة وبقيت فى قميص بدون أكمام. وجهها دقيق نـاعم كوجـوه الأطفال.. لا بد أنها أمريكية كانت تزور أقـارب لهـا فـى ليبيا... أو سائحة سويدية أو ألمانية أو إنجليزية ... كل هذا لا يهم الذى يهم أنها مسافرة وحيدة، وأنهـا جميلـة، وأنهـا بجوارى على المقعد، وحركة صغيرة كلمة صغيرة، سـتفتح بينى وبينها عالما جديداً. سوف يجرى فيه دمي، وأجد فيـه علاجاً لأمراضي. ونظرت باشتهاء إلى ذراعها الذى يسـيل كنهر العسل.. تفصل بينى وبينه مساحة صغيرة تزيد علـى موضع أصابع اليد.

انتظرت أن تبدأنى بالحديث، أنها رحلتى الأولى إلى الخارج.. وقد سمعت كثيراً عن صراحة وشجاعة الأجنبيات، المرأة الأجنبية هى التى تبدأك بالحديث.. هى التى تمد يـدها الناعمة إلى شعرك الأجعد تستأذنك فى أن تتحسسه وتسـتمع به.. وتنظر إلى ملامحك السمراء التى لفحتها أشعة الشـمس

وتهيم بها، هكذا كانوا يقولون لي، حتى شـجعونى علـى أن أغامر بشراء التذكرة وركوب الطائرة وقضاء هذه الإجـازة خارج بلادي... ومن أجل هذا رحت أمـرر بيـدى بشـعر رأسى لأنبه الجارة الجميلة أن لى شـعر أجعـد.. وأتنحـنح وأبتسم وأتحرك فى مقعدى كى تتنبه إلى أن بجانبها ملامـح سمراء لفحتها الشمس.. لكنها بدت عنيدة متكبـرة.. تشـمخ بأنفها إلى سقف الطائرة... سأعرف كيف أكسر الشـمس... لكنها بدت عنيدة متكبرة. تشمخ بأنفها إلى سقف الطـائرة.. سأعرف كيف أكسر عنادها وكبريائها.. مهلاً أيتها الجـارة الصغيرة، لست بدوياً غشيماً كما تظنين.... سأعرف من أين آكل كتفك الناعم ... ونظرت إلى ذراعها الذى يسـيل فـى نعومة... وإلى كتفها العاري. وقررت أن أبدأ إجازتي.

خلعت أن أيضا جاكيتتي.. اقتربت قليلاً من مقعدها.. وحركت كتفى ليزحف حتى يخنق المسافة التى تفصل بينـى وبينها. لأصل إليها وألتحم بها وأستمد من بدنها الطازج دفئاً للدم البارد فى عروقي... حرصت على أن تكـون حركـة عفوية لا أثر فيها للرصد والترصد... ولكى أزيد فى التغطية أشعلت سيجارة ونفخت نفسها طويلا وعندما حركت كتفـى

ليصل إليها بدأ وكأننى أريد – فقط – أن أتبحبح فى الجلسة. وكدت اقترب من ذراعها.. لولا أنها وبحركة واعية تململت فى مقعدها.. وابتعدت فى آخر الكرسي.. كأنهـا تريـد أن تمنحنى الفرصة لأرتاح فى جلستى كما أريد.

وفتحت مسافة جديدة بيننا. مسـاحة سـتكون أكثـر صعوبة. فقد كان سهلاً أن أعطى المساحة الأولى لكن مـع هذه المساحة الجديدة فإن على أن أتخلى عن شئ من وقارى وأتحرك فى محاولة مفضوحة نحو مقعدها.. ونظرت حولى عندما لم أجد عينا تراقبنى قررت أن أواصل الزحف... كان ذراعها مترجرجاً شابته حمرة خفيفة كفاكهة فى تمام نضجها وكنت أنا الثعلب الذى يحاول أن يقفز ويمد براثنـه ليقطـف الثمرة الناضجة.

اتكأت على المسـند الـذى يجمـع بـين مقعـدى ومقعدها... وكان على أن أجمع كل شجاعتى وخبرتـى وأن أزحف بكتفي... زحفاً بريئاً.. هادئاً... لا غبار عليه، كانت هى تنظر إلى الأمام وتلوك فى فمها قطعـة الحلـوى التـى قدمتها المضيفة فى بداية الرحلة. لكننى لم أرتاح إلى نظرتها الأمامية هذه، أحسست أنها نظرة كاذبة تمـوه بهـا علـي.

أحسست أنها قد باتت تدرك أغراضى الخبيثة، وأنه يستغرقها اهتمام عظيم بالمحاولة التى أبذلها للوصول إليها، وأنها تفتح أذنيها بقدر ما تستطيع تتحسس دبيـب كتفـى فـوق ظهـر المقعد.. وهى لا تزال صامدة... والمسـاحة اللعينـة تفـتح فمها..

ما زال أمامى جزء صعب يجـب أن أنهيـه.. لقـد رحلت مشاوير بعيدة.. وقطعت على قدمى مساحات شاسـعة عندما كنت صغيراً أتنقل مع والدى وهو يذهب إلى الحـرث والحصاد.. لكن أشق المسافات هى هذه المسافة اللعينة التـى لا تزيد عن موضع أصبعين.. لكننى سـأخنقها.. سـأروى عطش كتفى إلى مرمر كتفها.. ونظرت إلى الأمام... لكـى أبدو وكأننى لا أدرى على شئ.. كأن كتفى يمـارس عملـه بمعزل عنى وعن إرادتي... لكنه كـذب... فكـل إرادتـى وجهدى تتركز هنا... فى هـذا الكتـف ليغطـى المسـافة الصغيرة.. وتهيأ لى فى لحظة خاطفة كرمش العـين أننـى وصلت الهدف وأن ذراعى يعانق ذراعها الآن ويلتصق بـه ويبثه حنينه وشوقه.. لكن شئ من هذا لم يحدث.. فبحركة لم أشعر بها ولم أدر كيف حدثت وكيف أحسست جارتى بـدنو

كتفى وكيف تداخلت فى نفسها وانكمشت.. لـم أدرى كيـف حدث هذا... كل ما أدريه أن مساحة جديدة تزيد عن موضع ثلاث أصابع قد فتحت فمها من جديد.. كان كفاحى وصبرى قد تلاشى فى الهواء.. وأصابنى حزن عميق. وللحظة قررت أن أتنازل عن هذه اللعبة، تهيأ لى أن ما أفعله عمل صبيانى لا يليق برجل وصل الثلاثين من عمره. وأن على أن أكـف حالاً عن هذه اللعبة وأعود مسالماً إلى مقعدي. لكننى وجدت كتفى مصراً على البقاء فى مكانه، كأنه أحتل موقعة حربيـة خطيرة من الصعب أن تتنازل عنها، وأحسست بأننى لو لـم أصل بكتفى حتى يلامس كتفها ويعانقه ويشرب مـن مائـة، لسوف أشعر بخيبة تتضاءل بجوارها كل خيبة عمرى فـى الحصول على النساء عندما كنت أطوى الشوارع ليلاً ونهاراً وألف المدينة بسيارتى ككلاب أصابه السعار لا طفـئ جـوع عواطفي.. ثم أعود وأنا أجر خيبتى وجوعي.

ورمقت المساحة بغيظ لا حد له... سأناضل ضد هذه المساحة اللعينة حتى الموت.. وبدا على أن هذه آخر مسـافة أقطعها على أن أنال غرضي. فلقد انزوت فى الكرسى حتى لم يعد هناك مساحة أخري.. وانكمشت على نفسها حتى لـم

يعد هناك مجال إلى مزيد من التداخل والانكماش.. الحصار الآن محكم... ولم يبق إلا أصابع ثلاث واصل. وانتظـرت لحظة حتى مرت المضيفة تؤرجح ابتسامتها أمامها.. ورمقت بنظر جانبية جارتى الصغيرة.. ما تزال تنظر إلى الأمـام، ولكن أثر الحصار واضح على ملامحها ... تفتحت بـراعم أنفسها فى غيظ.. وكشرت بين حاجبيها. وحط غبار الضيق فوق ملامحها. ولم يؤثر هذا فى معنوياتهـا.ز فالمسـاحة لا تزال تفصل بيننا. ولم تعد فى فكرى مساحة واحدة تفكر فى ضيق الجارة أو حزنها أو سـعادتها.. فالمسـاحة لا تـزال تفصل بيننا. ولم تعد فى فكرى مساحة واحدة تفكر فى ضيق الجارة أو حزنها أو سعادتها.. كان كتفى ذئباً جائعاً... وفتح الذئب أنيابه.. وتقدم فى حذر إلى الفريسة فى دبيب خافـت كدبيب أقدام الموت.. وكانت عضلاتى تتشنج كأننى خـائف من أن أخوض هذه المغامرة القاسية ثم يلحقنى الفشل.. وكان على أن أتحرك كحركة عقرب الساعات فى ساعة يدى الذى يحط فوق الساعة الخامسة ثم السادسة ثـم السـابعة دون أن أراه يتحرك... كحركة الكرة الأرضية التى تدور كـل يـوم ونحن فوقها دون أن نحس بأنها تدور تحت أقدامنا.. حركـة

ثقيلة بطيئة، ولعله مضى وقت طويـل قبـل أن أحـس أن المساحة اللعينة تختنق، تموت، بل أكاد تسمعها تصرخ، وأنا أكتم أنفاسها بدبيب كتفى البطيء.. وقبل أن أستكمل سعادتى وأذوق طعم الانتصار. وجدت كأن الطائرة قد اتسـعت، وأن المقعد امتد أشباراً أخرى حتى استطاعت جارتى الصغيرة أن تجد مكانا آخر تنزوى إليه وتمنح الفرصة لمساحة جديـدة. وحطت فى قلبى صحابة هم ثقيلة، كانت مساحة فـى حجـم المساحة الأولى.. كأنها طرف لسانها فى هـزء وسـخرية.. ورغم ما بدا لى من أننى لو واصلت المحاولة فسأضطر إلى أن أنكفئ نحوها فى وضع مفضوح وأبدو كإناء مـدلوق... وأن ليس هناك مجال لأميل بجسدى وأزحف بكتفى أكثر من هذا لن يصعب على من يرانا أن يكتشف لعبتى ومضـايقتى لهذه المرأة الصغيرة. رغم هذا لم أتراجـع.. بـدا لـى أن التراجع ليس إلا خيبة وانهزام، يجب أن أمضي، مـا زلـت أرى ذراعها العارى شهياً يسيل له لعاب كتفي، وكان علـى أن أبدأ معركة أخري. معركة رحت أخوضها وأنـا أكثـر إحراجاً.. وكانت حبات من العرق الصـغيرة تنبـت علـى جبيني، ولكننى سأكمل هذا الشوط اللعين.. بدأ كتفى زحفـه

الكونى البطيء وكانت عيناى كجهاز رادار يراقب ويلـتقط الصور ويقوم بدور الرقيب لحركة كتفي... كان تعبير مـن الانزعاج يغمر ملامحها كأن الذى يزحـف نحوهـا بـراثن وحش خرافى خرج من كهوف خفية مجهولـة.. ليسـحقها. ومسحت مجتمع الطائرة بنظرة شاملة.. كان كل شئ هادئـاً، بعض الركاب يستغرقهم الحديث، وبعضهم يدفن وجهه فـى السحب، وبعضهم يطالع الصحف.. لا أحـد يشـعر بهـذه المعركة التى تدور الآن. كان مجتمع الطائرة هادئـاً كأنـه يتواطئ معى ضد الجارة الصغيرة. اطمأننت. وشحنت هـذه الطمأنينة كتفى بقوة دفع جديد يواصل بها الزحف. وكأنمـا أوقفت الطائرة محركاتها وحطت فوق القمر كأنمـا الأرض والكواكب وإجرام السماء فقدت وقارها وأسرعت فى الدوران حول نفسها طرباً.. فقد وصل كتفى إلى كتفها وسجد راكعـاً فوق رخام ذراعها..ز وعمرت مسام جسدى قشعريرة لذيذة، سرت من ذراعها إلى كتفى إلى جسدى، وأحسسـت بـدمى يتحرر من ثقله وتخثره ويركض كجياد برية لم تمتد لها يـد سائس.. تركض عبر سهولة عريضة ممتدة، وصرت أمتص رحيق سعادة صافية أستشعر طعمها على طـرف لسـاني..

لكن هذا لم يدم طويلا فقد بدا على جارتى كأنهـا تريـد أن تطلق صرخة تحطم جدران الطائرة وأعرف إذا مـا كانـت تخصنى أم لا.. وأدركت أنها ضحكة يحـاول صـاحبها أن يكتمها فى كم قميصه، وبدون أن ألتفت أدركـت أن هنـاك راكباً فى المقاعد الخلفية يراقب ويشـاهد مـا يحـدث الآن، وكأنما فتحوا نافذة من الطائرة وأسقطونى لأرتطـم وأتهشـم فوق الأرض. تلاشت سعادتى كالسحاب، ووجـدت نفسـى أنفلت هارباً أنزوى فى الركن الأقصى من مقعدى، وأنا أحس بخجل عظيم وعرق يبلل جسدى وكأننى طفـل تبـول فـى سراويله.. أحسست سخافة ما كنت أفعله ومدى بشاعته. أنبْتُ نفسى وعنفتها فقد كنت جلفاً قاسياً لا يعرف كيـف يعامـل الناس بأدب وذوق.. كنت مستنقع صغير يفـوح بروائحـه الكريهة. كان بإمكانى أن أفتح مع جارتى باباً لحـديث ودى عن الرحلة والطائرة والسحاب، وستكون ودودة طيبة وهـى تبادلنى الحديث وتسألنى عن رحلتى وهدفى، بـدلاً مـن أن أزعجها بدبيب كتفي، أحسست أن كل العيون فـى الطـائرة تحاصرنى وتغمرنى ببصاق لزج يسيل على وجهى، كنـت فأراً مذعوراً وقع فى المصيدة، وفى صـعوبة حاولـت أن

ألتفت إلى الخاف لئلا يكون مجرد وهم ضيع على متعتـي. لكنه لم يكن وهماً، كان هناك ينتصـب بأكتـاف عريضـة ويقتحمنى بنظراته، وعندما رآنى ألتفت إليه، أبتسم فى خبث وأشار بأصابعه إلى لافتة التعليمات. كانـت تضـئ ضـوء الخطر الأحمر... وترسل تحذيرها إلى الركاب.

اربطوا أحزمة المقاعد..

أدركت أننا نجتاز الآن إحدى المطبـات الهوائيـة. ربطت حزام مقعدي. ودفنت رأسى فى السحب رأيت السحب كوجه شيخ له ذقن أسود يتخلله بياض الشيب.. وجـه شـيخ موفور الصحة مرتاح الضمير.. وكان الشيخ ينظر نحوى فى حزن !!.

أزمة الديمقراطية فى العالم العربي

اسمحوا لى أيها الزملاء، أعضاء هذه الندوة، أن أعتمد الغموض لا الوضوح، والمراوغة لا المصارحة، كسبيل وحيد لمعالجة هذه القضية، الحافلة بالحقول المعرفية والدلالية، والإشكاليات المضمرة والظاهرة والتى يحيلنا إليها عنوان ندوتنا: " أزمة الديمقراطية فى الوطن العربي " وسأحاول أن أحقق المعجزة بأن أحتوى كل هذا الزخم فى وعاء زمنى قدره عشر دقائق التزاما بما حدده السيد رئيس الجلسة. ودون إبطاء، أقول: بأننا - سيداتى وسادتى - أمام أربع كلمات يتشكل منها عنوان هذه الندوة، أراها بعين الباحث، أربعة فروع لشجرة سامقة، استجابت لدورة الحياة الجليلة الخصيبة، ونواميس التوالد والتناسل، فأنتج الفرع الواحد أربعة فروع جديدة، تعيد بدورها إنتاج نفسها، ليطرح كل فرع أربعة أخرى، فى عملية تبدأ ولا تنتهى، حتى تملأ الشجرة أركان الأرض الأربعة، باعتبارها معادلا رمزيا لدورة الحياة ذاتها.

وعودة إلى الكلمات الأربع التى تعبق بجلال الأمهات، كما احتواها العنوان نقول:

١ - هناك أولا " أزمة "

٢ - وهناك ثانيا " ديمقراطية "

٣ - وهناك ثالثا " وطن "

٤ - وهناك رابعا " عربي "

هكذا حددنا الإطار الدلالى والمرجعي، العلمى والمنهجى، الذى يعيننا على مقاربة الموضوع، بكل ما يزخر به من مفاهيم وأنساق وعلائق.

أولا - الأزمة

لكى نصل الى نتائج تستفيد منها الأجيال القادمة (وهنا أبدى أسفى الشديد لأن الأجيال السالفة، لن تستطيع، وقد انتهى زمانها، أن تستفيد من نتائج هذا البحث) لا بد أن نسأل أنفسنا، ونحن نتحدث عن الفرع الأول، هذه الأسئلة الأربعة:

١- لماذا الأزمة؟

٢ - ومن أين جاءت؟

٣ - وكيف تفاقمت حتى أصبحت أزمة؟

٤ – وما هى مراحل الانفراج التى نمت فى رحمها هذه الأزمة؟

إن كل هذه الأسئلة تفضى بالضرورة الى إشكالية محددة تقتضى منا وضع تعريف للأزمة. فالأزمة لا تكتسب صفتها هذه، إلا إذا كانت شيئا عارضا، أدخل عناصر التأزم على حالة تميزت بالانفراج. فمتى وجدت هذه الحالة التى انتهت بتأزم الديمقراطية فى الوطن العربى. وإذا تنازلنا عن حقنا فى الاعتراض واعتبرناها قد وجدت، بحسب ما يقول عنوان الندوة، فما هو عمر هذه الأزمة التى نعنيها. إننا بالتأكيد أمام حالة استثنائية لم يعرفها تاريخ الأزمات التى شهدتها المجتمعات البشرية، فهذه أول أزمة لا نستطيع أن نحدد لبدايتها تاريخا معلوما، إلا إذا عدنا إلى حقب الحياة البدائية بأطوارها الأربعة التى قرأناها فى الكتب:

١ - عصر الجليد الكبير (أى مع ظهور الحياة البشرية، ويمكن حينئذ نسبتها الى هذا العصر فيصبح العنوان الأزمة الجليدية للديمقراطية فى الوطن العربي).

٢ - العصر الحجرى القديم (عندما اهتدى الناس الى الأدوات الحجرية، وصنعوا منها خناجر يذبحون بها بعضهم البعض، ويمكن هنا نسبتها الى الحجر، فنسميها الأزمة الحجرية... الخ).

٣ - العصر الحجرى الحديث (عندما ارتقى مستوى الاقتتال بين الناس إلى المبارزة بالخناجر التى قدحت أولى الشرارات، وجعلته يكتشف النار، ويمكن فى هذه الحالة نسبتها الى النار، لتصبح الأزمة النارية.. إلخ).

٤ - عصر البرونز (عندما وصل الإنسان الى استخدام المعادن فى صنع خناجره الأكثر فتكا بالآخرين، ويمكن أن نسميها فى هذه الحالة الأزمة البرونزية... الخ).

ونتوقف عن تقديم مزيد من الحفريات، لكى نترك للباحثين من أبناء الأجيال القادمة، تعميقها وتوسيعها والاهتداء من خلالها الى العمر الحقيقى لهذه الأزمة.

وننتقل سريعا الى جوانب أخرى من شأنها أن تساعدنا فى تشخيص الحالة. ولا بد أن نطرح هنا الأسئلة الأربعة التالية التى تتصل بطبيعة هذه الأزمة، وهل هي:

١ - سياسية؟

٢ – اجتماعية؟

٣ - اقتصادية؟

٤ - نفسية؟

وإذا اعتبرناها أزمة تشمل هذه الجوانب الأربعة جميعها. وأردنا أن نتحدث عن جانبها السياسى باعتباره أكثر أهمية وإلحاحا، فما هى الإشكاليات الأربع التى يثيرها فى أذهاننا هذا الجانب.

١ - هل هى إشكالية الحاكم فقط (ونحن هنا نتحدث عنه بمعناه المطلق، لكى لا يسيء فهمى العاملون بالأجهزة الأمنية من زملائى أعضاء الندوة).

٢ - هل هى إشكالية المحكوم أيضا (وبرغم أنه يجب أن يبقى مهمشا، كما يريد حاكمنا العربى المبجل، إلا أن ضرورة البحث تستوجب ذكره).

٣ - أم هى اشكالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم (ونحن نعرف أن الحاكم العربي، حفظه ا ، قد حسم هذه الإشكالية فلم يعد لها وجود فى بلادنا ولكننا نوردها هنا لأسباب نظرية أكاديمية فقط).

٤ - أم هى إشكالية الأداة التى تحكم هذه العلاقة (ولا نقصد البوليس طبعا، فلتعذرنى مرة أخرى أجهزتنا الأمنية الحبيبة).

وإذا لجأنا الى الحيل المعرفية، وحاولنا الاهتداء بها لإيجاد تعريف لكل إشكالية على حدة، فماذا نقول عن إشكالية الحاكم، وعن أى نوع من أنواع الحكم الأربعة، سيكون حديثنا:

١- هل هو حكم الولاية؟

٢ - هل هو حكم الوراثة؟

٣ - هل هو حكم الإنابة؟

٤ - هل هو حكم التفويض؟

ومادام الحاكم العربي الذى حبتنا به ربات الحظ السعيد، ليس بحاجة إلى أن يسأل نفسه هذه الأسئلة، فما حاجتنا نحن إلى طرحها اليوم. فهى بالتأكيد أسئلة زائدة عن الحاجة، من واجبنا أن نهملها، وننتقل إلى هذا " المحكوم " ونسأل عن ماهية تلك الشروط الأربعة التى تؤطر وجوده، وفق الأنساق الفكرية المعروفة، وهذه الشروط هي:

١ - شرط المواطنة.

٢ - شرط المشاركة.

٣ - شرط المعارضة.

٤ - شرط " الأمان ".

ولقد ألهم ا المحكومين فى الوطن العربي، إلى اكتشاف العناء الذى يصيبهم نتيجة الحياة وفق هذه الشروط، فتنازلوا عنها كاملة إلى جلالة السلطان، وما عاد ثمة موجب لشرحها وتفصيلها. ويبقى من الترف أيضا الحديث عن طبيعة هذه العلاقة وأركانها التى تضبطها التشريعات والدساتير، بما فيها العناصر الأربعة التالية:

١ - المساواة أمام القانون.

٢ - حرية العقيدة.

٣ - الحرية الفردية.

٤ - العدالة الاجتماعية.

وإذا كان الحديث عن هذه العناصر، قد أصبح ترفا لا طائل منه، ولا علاقة له بتشخيص الأزمة، فماذا يمكن أن نقول عن الأداة التى تضبط هذه العلاقة والتى اتفق المشرعون على أنها أربع سلطات لا يكتمل كيان الدولة إلا بها، وهي:

١ - السلطة التشريعية.

٢ - السلطة التنفيذية.

٣ - السلطة القضائية.

٤ - وسلطة رابعة هى سلطة المنابر الإعلامية الحرة.

وليس غريبا بعد ذلك، أن نرى، أن كل هذه السلطات قد اجتمعت فى شخص واحد كما هو الحال فى بلادنا العربية، دليلا أكيدا على العبقرية التى يتمتع بها زعماء أمتنا. وسأرجئ الحديث فى التفاصيل الى آخر المحاضرة، لأنتقل الى الجانب الاقتصادى للأزمة، بأنواعه الأربعة:

١ - الاقتصاد العشوائى (الذى تخلت عنه الدولة العصرية، ولم تنتبه الى أهميته سوى شعوبنا العربية فأبقته معها وعضت عليه بالنواجذ).

٢ - الاقتصاد الحر (وهو ما يعرف أيضا باقتصاد السوق، لأنهم يسوقون إليه الشعوب بالعصا وفق النظام العالمى الجديد).

٣ - الاقتصاد الموجه (الذى يوجه الشعوب نحو حتوفها أحيانا).

٤ - الاقتصاد الحر موجه (وهو الاقتصاد الذى يجمع بين الحر والموجه، ويسمونه أيضا اقتصاد عروس البحر، نصفه سمكه ونصفه إنسان).

وإذا تركنا هذا الجانب، لكى نعود الى شرحه فى نهاية المحاضرة فماذا عن الجانب الاجتماعي، ونحن نعرف أنه يقوم على الأركان الأربعة التالية:

١ - الأسرة.

٢ - القبيلة.

٣ - الشعب.

٤ - الأمة.

وإذا كانت الإذاعات العربية قد عرفت كيف تزرع فى نفوسنا حب الأسرة والقبيلة وتربط هذا الحب بأسرة الحاكم وقبيلته، وتجعل من كلمتى الشعب والأمة، مرادفا وغطاء لأسرة الزعيم وقبيلته المبجلة، فما ذلك إلا حرصا منها على تأكيد معانى التضامن والوقوف صفا واحدا خلف الحاكم، فى مواجهة أعداء الوطن.

وسنعود فى ختام المحاضرة إلى شرح هذه الأركان وعلاقتها بالأزمة. أما الآن فسننتقل بالحديث الى معالجة الجوانب النفسية التى ورد ذكرها آنفا، والتى يمكن تحديدها فيما يلي:

١ - الأنا الخاصة (التى تتعلق بالفرد، بما فى ذلك آراؤه وأفكاره وهواجسه التى لا يستطيع أن يفصح عنها إلا أثناء النوم).

٢ - الأنا الجماعية (التى تتصل بذات المجتمع. وتكون أباً لمن لا أب له، وأماً لمن لا أم له).

٣ - الأنا الخاصة والعامة (تعبيرا عن حالة الفرد ساعة اندماجه فى المجتمع والتى ينتج عنها مرض العصاب الجماعى كما هو الحال أثناء الاستماع لخطب الزعيم).

٤ - الأنا العليا (وهى الأنا التى احتوت إرادة الفرد وإرادة المجتمع وصارت بديلا عنهما وهى الأنا التى لا يتوافر عليها سوى الزعيم).

وحرصا على عامل الوقت، سأترك لزملائى الباحثين الإطناب فى تفسير هذه الجوانب لكى أنتقل مباشرة الى الحديث عن الكلمة الثانية التى وردت فى عنوان هذه الندوة.

ثانيا - الديمقراطية

وبرغم ما توافر للباحث الحديث من أدوات الكشف والتحليل وعناصر الفك والتركيب فإن هذه الكلمة ما زالت تحتفظ بكثير من أسرارها المغلقة، وترفض أن تمنح نفسها

بيسر وطواعية، لمن أراد تشريحها وتحليلها، ولابد أن أسوق ملاحظة أساسية، وهى أن الأصل اليونانى لهذه الكلمة، كلمتان، هى ديموس، وكراتوس، ومعناهما الشعب والحكم، وبرغم أنهما ينفصلان فى الأصل اليوناني، إلا أنهما يتحدان ويمتزجان ويتداخلان فى بعضهما البعض فى الكلمة العربية، وهو دليل واضح على تأصل الديمقراطية لدى العرب الذين رفضوا حالة الانفصال بين الشعب والحكم فجمعوهما فى كلمة واحدة، يتوحد شكلها مع مضمونها، دون انفصال أو قطيعة، ولكن هذا لن يعفينا من تقديم تعريف لهذه الكلمة العامرة بالأضواء والظلال. إنها حكم الشعب. فمن تراه يكون هذا الشعب؟ قد يبدو السؤال ساذجا أيها الزملاء ولكن لا تسرعوا فى إصدار الحكم واستمعوا الى هذه الأسئلة الأربعة:

١ - هل نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية، شعب؟

٢ - هل نزلاء المعتقلات والسجون، شعب؟

٣ - هل الهاربون من التجنيد ومدمنو المخدرات وتجار السوق السوداء، شعب؟

٤ - ثم هل الأطفال الذين يتكدسون فى عنابر مستشفيات الولادة، والأحداث الذين يقطنون الملاجئ والاصلاحيات، شعب؟

إنهم شعب بالمعنى المطلق، ولكن هل هم شعب بالمعنى الذى تقصده هذه الندوة، قادرون على تأسيس وممارسة الديمقراطية، وإذا نحن أقصينا هذه الفئات كلها وأقصينا معها أعوان السلطة من درك وجندرمة. فمن تراه قد بقى لممارسة هذا الحق الديمقراطي؟ ألا يضعنا ذلك وجها لوجه أمام الأقلية وعلاقتها بالأغلبية، فأين إذن هذه الأغلبية؟ ثم دعونا نسأل أى حق نقصد؟ هل نحن نتحدث عن:

١ - حق الاقتراع؟

٢ - حق التصويت؟

٣ - حق الاستفتاء؟

٤ - حق الانتخاب؟

وبرغم أنها جميعا فروع لأصل واحد ينتهى فى أنظمتنا الى رئيس الدولة الذى لا اقتراع ولا تصويت ولا استفتاء ولا انتخاب إلا لتأكيد حضوره واستمراره، فلماذا الاختلاف حول هذه القضية، وغيرها من قضايا مثل هل

نجعل الاقتراع علنيا أم سريا لأنه كما تعرفون جميعا لا سرية أمام حاكمنا العربي، الذى وهبته العناية الإلهية القدرة على أن يرى ويعرف كل شيء.

ولعله من واجبنا ان نسأل هنا وفق أى نمط من الأنماط الأربعة التالية سنمارس هذا الحق. هل نمارسه وفق:

١ - الديمقراطية التقليدية (وهى التى تحتاج الى برلمان وأحزاب ودستور وصحافة ورئيس تهاجمه الأحزاب، ويهاجمه البرلمان، وتهاجمه الصحافة، ويحدد مدة حكمه الدستور. فأى رئيس هذا الذى تسمح كرامته بمثل هذا العبث).

٢ - الديمقراطية الاشتراكية (وليس للديمقراطية فيها سوى دعوة التكافل والعدل الاجتماعى، ومع ذلك فقد أفقرت الأغنياء، دون أن تغنى الفقراء وضمنت المساواة لكل الناس، عدا أفراد الحزب الواحد الحاكم الذى يحكم مدى الدهر. ومن أهم مزاياها أنها تصلح غطاء لفرد أو قبيلة).

٣ - الديمقراطية المباشرة (جربها قدماء الإغريق، عندما كانوا ينقسمون إلى فئتين، فئة تحكم هى فئة الأسياد، وأخرى تعمل هى فئة العبيد، وعندما تحرر العبيد لم يجد

الإغريق وسيلة لتطبيقها، لأنهم وقفوا حائرين من منهم يعمل ومن منهم يحكم).

٤ - الديمقراطية شبه المباشرة (وهى التى تعتمد على المجالس البلدية والحكم المحلى فيا فرحة المختار فى كل قرية عربية).

وأخيرا أقول لكم أن أسئلة الديمقراطية لا تنتهي، لأن كل سؤال يطرح أسئلة جديدة، وأعدكم بأن أعود لطرح الأسئلة، واقتراح أجوبة عنها، مع نهاية هذه المحاضرة. أما الآن، فقد حان وقت الحديث عن الكلمة التالية فى عنوان هذه الندوة.

ثالثا - الوطن

واسمحوا لى أن أضع يدى على قلبى وأقول " آه ثم آه يا وطني " نعم، نعم، فالقلب يخفق بعشق هذا الوطن، والدماء تجرى فى العروق ممزوجة به، وما كل تلك القصائد التى قرأناها، والأناشيد التى حفظناها منذ الطفولة، والتى تتغنى بحب هذا الوطن والولاء له، إلا دليل ساطع على عمق الوشائج التى تربطنا بالوطن، فما معنى هذه الكلمة يا ترى؟

١ - هل الوطن مساحة من الأرض لها حدود وبوابات؟

٢ - هل الوطن قطعة قماش نسميها " العلم " ونرفعها فوق أبنية وسيارات الحكومة؟

٣ - هل الوطن حاكم ونشيد رسمى وشرطة؟

٤ - هل الوطن جواز سفر وبطاقة هوية؟

وإذا كان الوطن كل هذه الأشياء، فكيف يمكن أن نطلق كلمة وطن، على وطن تعددت فيه الرايات والأناشيد الرسمية، وتنوعت فيه جوازات السفر وبطاقات الهوية وتناثرت بين أطرافه الحدود والمخافر والبوابات، وخاض حكامه أشرس الحروب بين بعضهم البعض، إننا هنا أمام حالة استثنائية لم يعرفها تاريخ الأوطان من قبل، ولذلك أعذركم إذا التبس عليكم الأمر وصرتم حيارى أكثر منى فى تحديد كلمة الوطن الواردة فى عنوان هذه الندوة. ولعلنا إذا وضعنا كلمة " عربي " أمام هذه الكلمة، نجد وسيلة نتعامل بها مع هذه الحالة الاستثنائية، تعيننا على دراستها وفق آليات مغايرة لآليات البحث التى يستخدمها علماء السياسة فى البلاد

الأخرى، ولذلك فإننى أستميحكم العذر فى أن أنتقل مباشرة الى الكلمة الأخيرة فى عنوان هذه الندوة.

رابعا - العربي

ها نحن نصل الى رابع الكلمات فى عنوان ندوتنا، وأكثرها أهمية وخطورة فلولاها، لصار الحديث أكثر يسرا وسهولة، إذ ما أسهل أن نتحدث عن الديمقراطية فى أى وطن، ولكن أن نقول العربي، فمعنى ذلك أن حقل ألغام معرفية تبدّى فجأة أمامنا وأقحمنا فى حالة مادية ومعنوية، تقتضى استنفار كل المدارك، والاستعانة بكل أساليب المكر والمراوغة، حتى ننفذ منها بأمان، ونبدأ بمساءلة البديهيات فنقول من ترانا نقصد عندما نطلق هذا النعت، وأمامنا الحالات التالية:

١ - يقولها الشاعر العربى مفاخرا بأمجاد الآباء، متباهيا بنفسه، مستخدما ضمير المتكلم " أنا عربي ".

٢ - ويقولها دركى فرنسي، مستخدما ضمير المخاطب، قاصدا الإهانة والاحتقار " أنت عربي ".

٣ - ويقولها بطل رواية الغريب مستخدما ضمير الغائب كمبرر لإطلاق الرصاص عليه " إنه عربي ".

٤ - ويقولها باحث يتحدث عن ابن خلدون، باعتباره من رموز الحضارة الانسانية " كان عربيا ".

فهل هى صفة للتفاخر أم الإهانة، هل تعنى الشر أم الخير، وإذا أردنا أن نتجاوز هذه الاعتبارات، بحثا عن تعريف علمى لمعنى العربي، فلابد أن ننظر الى الشروط الأربعة التالية، كسبيل لتحديد هوية العربي، وهي:

١ - شرط الزمان.

٢ - شرط المكان.

٣ - شرط اللسان.

٤ - شرط الانسان.

وعذرا لهذا السجع الذى فرضته المعالجة الموضوعية المنهجية. واستجابة للقواعد الصارمة التى اقتضتها هذه المعالجة، نقول، إن شرط المكان هو الذى يمنعنا من أن نتورط فى طرح سؤال عرضي، مجاني، مثل:

١ - هل السواح عربا؟

لأن السائح الذى ينتقل من مكان الى مكان، يمكن ان ينتمى لأى مكان. ولكننا يمكن نطرح أسئلة مثل هذه الأسئلة الأربعة:

١ - هل الإسكيمو عربا؟

٢ - هل الهنود الحمر عربا؟

٣ - هل قبائل الماو ماو قبائل عربية؟

٤ - هل الصقالبة عربا؟

والجواب بحرف واحد، لا. أنهم وأن تشابهت الظروف، وتقاربت الهموم بينهم وبين العرب، وهى كثيرة كما تعلمون، فإن شرط المكان وهو فى هذه الحالة الوطن العربي، لم يتوافر لهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخري، فإن هذا الشرط لن يعفينا من طرح أسئلة أكثر حرجا هذه المرة، مثل:

١ - هل الأسماك التى تعيش فى أنهار وبحيرات وشطوط الوطن العربي، عربية؟

٢ - هل الطيور التى تطير فى أجواء الوطن العربى وتبنى أعشاشها فوق أشجاره عربية؟

٣ - هل الديدان والخنافس والفئران وكائنات الغابات والأحراش، فى الوطن العربي، ذات أرومة عربية؟

٤ - هل الحيوانات الأليفة التى تعيش فى بيوت وحظائر العرب، من قطط وكلاب وتيوس وقرود وحمير وأحصنة، عربية؟

هنا نقع فى إشكالية كبرى، تضاربت حولها أقوال المفسرين، فلقد قرأنا جميعا كتبا، تتحدث عن مزايا الطيور العربية، وطبيعة الجواد العربي، وتاريخ الأعشاب الطبية العربية، بل وقرأنا قصائد لاحصر لها، تشيد بأشجار النخيل، باعتبارها من رموز الأصالة العربية.

لقد توفر لكل هذه الحيوانات والنباتات، شرط المكان، كما توفر لأغلبها شرط الزمان، فهى مقيمة على تعاقب الأجيال والسلالات فوق هذه الأرض العربية.

ولكن سقط عنها شرطان، هما شرط اللسان، وشرط الإنسان (وان لم يسقط عنها بطبيعة الحال، حقها فى الاستفادة من حل أزمة الديمقراطية فى الوطن العربي).

واسمحوا لى - سيداتى سادتى - أن أعود لمناقشة هذه النقاط بعد الانتهاء من هذه المقدمة. لأن ما يعنينى الآن، هو هذا الإنسان، الذى توفرت لديه شروط الحديث باللسان العربي، كما توفرت لديه شروط الإقامة فى المكان، وامتداد

الأصل والنسب فى الزمان. وبادئ ذى بدء، أقول، إن الإنسان كما تعلمون، أيها الزملاء لا يسمى إنسانا، إلا لنسيانه. فما هى يا ترى هذه الأشياء التى نسيها المواطن العربي، وتأهل بموجبها أن يكون إنسانا. لقد نسى آدم أبو البشر تعليمات ربه الذى نهاه عن أكل ثمار تلك الشجرة، فكان هذا النسيان نسيانا مباركا أدى الى وجوده فوق الأرض وتعميره لهذا الكوكب. إن إنساننا العربى...

(يأتى صوت رئيس الجلسة، يقاطع المحاضر، ويذكره بأنه نسى موضوع الندوة، فالعودة بالحديث إلى سيدنا آدم، يعتبر خروجا على الموضوع. يهمل المحاضر هذه المقاطعة ويواصل الحديث).

... أما ما نسميه إنساننا العربي، فيمكن تلخيصه فى أربع نقاط، هي:

أولا - الوقت

فقد عاش هذا الإنسان هازئا بالوقت، لا يعبأ به، ولا يعمل حسابا لدورته السريعة، وهذه إحدى المزايا التى تحسب له، لا عليه، وتضيف رصيدا الى رصيده الإنساني، باعتباره

أكبر من الوقت، وأكثر كرامة وشرفا من أن يشقى بمطاردة عقارب ساعاته التى تصنع فى بلاد أجنبية.

(يأتى صوت رئيس الجلسة، يقاطعه ويذكره بأنه نسى الوقت المحدد للمداخلة وتجاوزه بأكثر من ربع ساعة. ولكن المحاضر يواصل حديثه، رغم طرقات المطرقة التى يستخدمها رئيس الجلسة).

اسمح لي، سيدى الرئيس، أن أذكركم بخطورة القضية التى نعالجها، وأهمية النتائج التى وصلت إليها، والتى تستحق منحي وقتا إضافيا، يتيح لي، وقد أوشكت على الانتهاء من قراءة المقدمة، أن أنتقل إلى القضية الأساسية. وعودة إلى ما نسميه المواطن العربى حتى صار إنسانا أقول:

ثانيا - التفكير

فلقد كانت ملكة التفكير، وبحسب ما تقوله الوثائق التاريخية المعتمدة، سببا لابتلاء الإنسان بأنواع لا حصر لها من الهموم، ويمكنكم النظر فى السجل الطبى لأى مثقف ابتلاه ا بداء التفكير، لتعرفوا حجم ما يعانيه من أمراض الانفصام والبارانويا، والشعور بالاضطهاد. من هنا أقول، إن

المواطن العربي، وقد كافأه ا بحكام يفكرون بالنيابة عنه، قد نسى استخدام ملكة التفكير ونجى بذلك من الآفات والأمراض التى تجلبها هذه العادة.

(يهمل المحاضر، طرقات مطرقة رئيس الجلسة الذى يطالبه بأن يكتفى بما قاله حتى الآن ويترك المنصة).

ثالثا - العمل

ونحن جميعا نعرف أن الرق والاستعباد، والمهانة والإذلال، والعذاب والشقاء، كلها مترادفات لفظية، لكلمة واحدة هى " العمل " فكيف لا نعتبر الإنسان العربي، رائدا، ومبشرا ورسولا، جاء يمنح البشرية أمل الانعتاق من هذا الشر، ووعد الحياة الهانئة اللذيذة التى لا تفسدها رذائل العمل، حياة تتأكد فيها إنسانية الإنسان، لأنها تعيده الى منابعه الأولى عندما كان كائنا من كائنات السماء، قبل أن يعرف الخطيئة ويهبط إلى أرض العمل والشقاء. فالجنة - أيها الزملاء – لا تكون جنة إلا لأنها لا تطالب الإنسان بالكدح صباح مساء. وهكذا فإن إنساننا العربي، وهو يهمل العمل، ويعلن عصياننا مدنيا دائما يشمل المكاتب والمصانع والدواوين، يسميه الحاقدون، إهمالا وتسيبا وكسلا وخمولا

وبطالة إنما يعلن ولادة النعيم الأرضى الذى يجدد انتماء الإنسان لأصله الملائكي.

(يقاطعه الرئيس بطرقات المطرقة التى لا ينصت لها المحاضر، فيقف الرئيس صارخا متشنجا يسأله أن يتوقف، ويخلى مكانه لمن يليه، يتعالى الصخب داخل القاعة، فى حين يواصل المحاضر، إلقاء كلمته).

ثم رابعا - وهى إنسانيته

ونصل هنا إلى أكثر المفارقات فى تاريخ البشرية غرابة وإعجازا، وهى مفارقة أن يتخلى الإنسان عن إنسانيته ويتناساها، لكى يصير إنسانا. نعم، قد تستغربون ذلك ولكن دعونى أشرح لكم هذه المفارقة، بأكثر المفردات بساطة، إن الإنسان لا يمكن أن يكمل شروط إنسانيته إلا إذا تنازل عن مزاياه التى اكتسبها بالكذب والباطل والتزوير، وصنع منها جدارا يفصل بينه وبين رفاقه من كائنات الأرض، ولهذا فإن الإنسان العربي، الذى تنازل عن ردائه الإنسانى الزائف، ليساوى نفسه برفاقه من كائنات الغابة، ويقبل أن يعيش مثلها، تدوسه أقدام الحاكمين، وتركله أحذية عساكرهم،

وتسحق رأسه الكوارث التى تنهمر كالأمطار بسببهم، إنما يؤكد بذلك مبدأ الأخوة والمساواة بين أبناء المملكة الحيوانية.

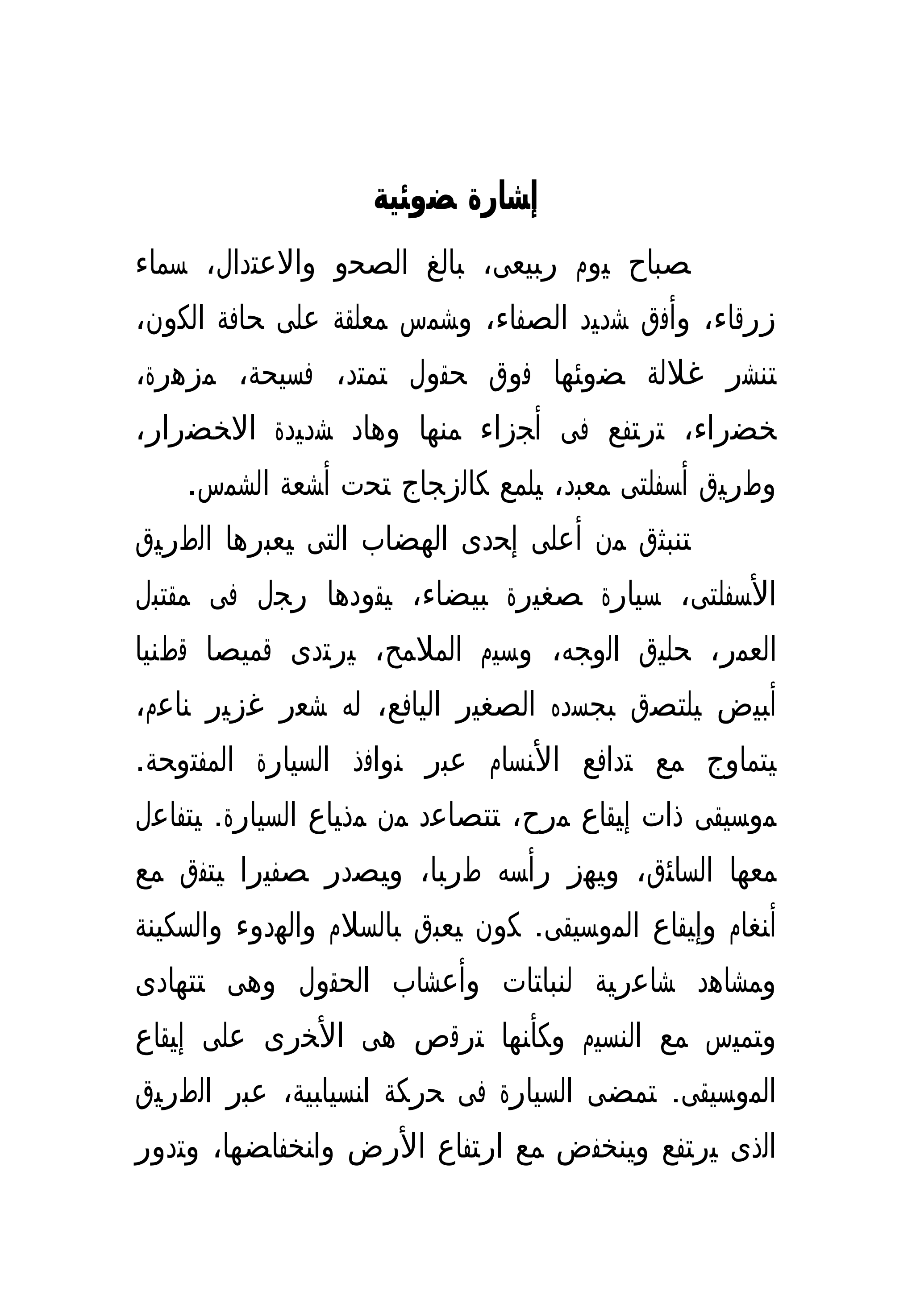
(تنهمر فوق رأس المحاضر شتائم ولعنات رئيس الجلسة، الذى استنجد بحراس القاعة، فصعدوا الى المنصة، وأحاطوا بالمحاضر يطالبونه بإخلاء المكان، يتشبث هو بناقل الصوت، ويواصل القراءة وسط الجو الصاخب).

لقد تعاملت باختصار شديد مع الدلالات والإيحاءات التى تحملها أربع كلمات وردت فى العنوان. عالجتها وهى متفرقة منفصلة وسأبدأ الآن حديثى عنها وقد اجتمعت واتحدت وأصبحت جملة مفيدة هى " أزمة الديمقراطية فى الوطن العربي " فهل هى حقا جملة مفيدة، وما هى أوجه الفائدة يا ترى، سأقترح عليكم أربعة احتمالات تُفضى هى الأخرى إلى أربعات وأربعات.

(يكون الحراس قد تمكنوا من سحبه وإبعاده عن ناقل الصوت، وهو يقاومهم ويحاول العودة إلى المنصة. يطرحونه فوق الأرض ويجرونه فوقها، فيما تتعالى صرخاته مستنجدا بجمهور القاعة).

أيتها السيدات، أيها السادة، إننى لم أبدأ بعد، دعونى أبلغكم نتائج البحث: إن الديمقراطية فى خطر، حياتكم فى خطر..

(لكن جمهور القاعة لم يعد يعبأ به، ولا بحراسه الذين صاروا يكممون فمه حتى الاختناق، فقد مضى هذا الجمهور يستقبل صوتا جديدا يأتى من مكبرات الصوت يتحدث عن أربعة عناصر أولها الأزمة وثانيها الديمقراطية وثالثها... إلخ).



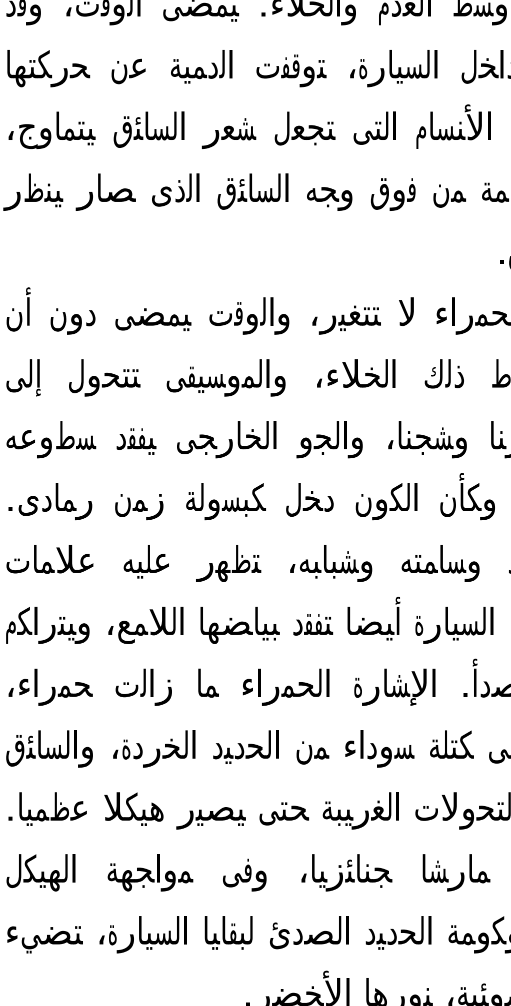
إشارة ضوئية

صباح يوم ربيعى، بالغ الصحو والاعتدال، سماء زرقاء، وأفق شديد الصفاء، وشمس معلقة على حافة الكون، تنشر غلالة ضوئها فوق حقول تمتد، فسيحة، مزهرة، خضراء، ترتفع فى أجزاء منها وهاد شديدة الاخضرار، وطريق أسفلتى معبد، يلمع كالزجاج تحت أشعة الشمس.

تنبثق من أعلى إحدى الهضاب التى يعبرها الطريق الأسفلتى، سيارة صغيرة بيضاء، يقودها رجل فى مقتبل العمر، حليق الوجه، وسيم الملامح، يرتدى قميصا قطنيا أبيض يلتصق بجسده الصغير اليافع، له شعر غزير ناعم، يتماوج مع تدافع الأنسام عبر نوافذ السيارة المفتوحة. موسيقى ذات إيقاع مرح، تتصاعد من مذياع السيارة. يتفاعل معها السائق، ويهز رأسه طربا، ويصدر صفيرا يتفق مع أنغام وإيقاع الموسيقى. كون يعبق بالسلام والهدوء والسكينة ومشاهد شاعرية لنباتات وأعشاب الحقول وهى تتهادى وتميس مع النسيم وكأنها ترقص هى الأخرى على إيقاع الموسيقى. تمضى السيارة فى حركة انسيابية، عبر الطريق الذى يرتفع وينخفض مع ارتفاع الأرض وانخفاضها، وتدور

مع الطريق الذى يتعرج ويلتوى كأنه بساط منسوج من مادة مشعة سوداء، تحف به خضرة الأرض وبهاء الربيع. دمية لامرأة جميلة ترتدى ملابس راقصة أسبانية، معلقة أمام السائق، تتهادى وتهتز مع صوت الموسيقى وتضيف لمسة جمالية إلى بهاء المشهد. تنحدر السيارة عبر إحدى الهضاب وتعبر بمحاذاة بحيرة تتوسط الحقول، تطوف فوقها طيور كثيرة بيضاء، ثم تمضى عبر أرض منبسطة وطريق صار الآن مستقيما بلا تعرجات.

بينما يشرد السائق مع الموسيقى بوجهه الباسم، كأن المشهد أيقظ فى نفسه جميل الذكريات، يظهر فى البعيد طريق آخر يتقاطع مع الطريق الذى تعبره السيارة، وفى تقاطع الطريقين، تنتصب إشارة المرور الضوئية التى تصدر ضوءا أخضر. ما أن تقترب منها السيارة حتى يتبدل الضوء ويصير أصفر، فلا يبقى غير لحظة قصيرة ويتحول الى ضوء أحمر فور أن تصل السيارة الى تقاطع الطرق، يدوس السائق على فرامل السيارة، التى تصدر صوتا عاليا موحشا يمزق السكون والهدوء، ثم تتوقف تماما استجابة لإشارة الضوء الحمراء المنصوبة وسط هذه الأرض الخلاء، حيث



لا أثر لأية سيارات أخرى تمرق من هناك غير هذه السيارة التى وقفت الآن وسط العدم والخلاء. يمضى الوقت، وقد سكن كل شيء داخل السيارة، توقفت الدمية عن حركتها الراقصة، وتوقفت الأنسام التى تجعل شعر السائق يتماوج، كما اختفت الابتسامة من فوق وجه السائق الذى صار ينظر إلى ساعته فى قلق.

الإشارة الحمراء لا تتغير، والوقت يمضى دون أن يحدث شىء وسط ذلك الخلاء، والموسيقى تتحول إلى موسيقى أكثر حزنا وشجنا، والجو الخارجى يفقد سطوعه وبهجته المضيئة، وكأن الكون دخل كبسولة زمن رمادى. وجه السائق يفقد وسامته وشبابه، تظهر عليه علامات الشيخوخة والهرم. السيارة أيضا تفقد بياضها اللامع، ويتراكم فوقها الغبار والصدأ. الإشارة الحمراء ما زالت حمراء، والسيارة تتحول إلى كتلة سوداء من الحديد الخردة، والسائق أيضا تدركه هذه التحولات الغريبة حتى يصير هيكلا عظميا. الموسيقى تصبح مارشا جنائزيا، وفى مواجهة الهيكل العظمى للسائق، وكومة الحديد الصدئ لبقايا السيارة، تضيء إشارة المرور الضوئية، نورها الأخضر.

اكتشافات عبد ا بن عبد ا

كما يجد الإنسان نفسه فى لحظة ما، بسبب ظرف ما أنه عاطل، وأن عليه أن يبحث عن عمل جديد يكسـب منـه لقمة عيشه، فقد حدث أن اكتشف عبد ا بـن عبـد ا ذات يوم أنه عاطل، وأن لا عمل له، وأن فى عنقه تتأرجح زوجة وطفلة صغيرة عليه أن يوفر لهما اللبـاس والأكـل، وكمـا يحدث دائما أن هذا العاطل يطرق كل بـاب، ويبـدأ طبعـاً بطرق الأبواب الكبيرة المصقولة اللامعـة أبـواب أجهـزة الحكومة وابواب الشركات الكبيرة ثم يتـدرج بـه المطـاف وينتهى دائما إلى إراقة ماء وجهه أمـام الأبـواب العتيقـة والبسيطة التى بلا صقل ولا لمعان باحثاً.

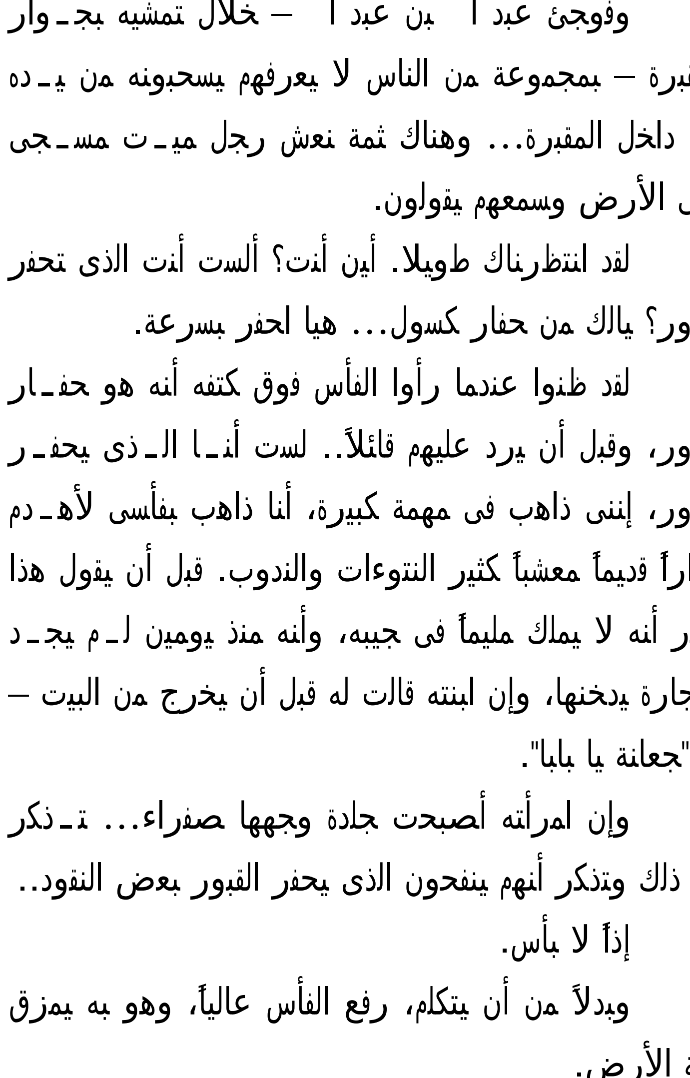
وقد غرزت فيه الأزمة أنيابها حتى لحمه الحى.

عن أى عمل سواء جرسون فى مقهـى شـعبى أو عامل فى معامل السردين المعلب أو حتى عتـال بـالبواخر الراسية فى مياه الميناء. هكذا حدث مع عبـد ا بـن عبـد ا ... ولكن لا عمل. هرول، ولهث وأراق كل ما فى وجهه من ماء.. وما زال عاطلاً.

وكثيراً ما فكر عبد ا بن عبد ا لماذا عليه أن يريق ماء وجهه على الأرض حتى يجد العمل، وما الضرورة فى أن يعمل، ما الضرورة أيضاً فى أن يجد لقمة العيش. وما السبب ولماذا وكان الرد الوحيد هو طبيعة الأشياء.. فلا بد أن تهرول وتتعب حتى تجد العمل... ولا بد أن تعمل حتى تضمن لقمة عيشك... ولا بد أن تجد لقمة عيشك لتعيش... تلك هى طبيعة الأشياء.

حتى تهيأ فى ذهن عبد ا بن عبد ا أن "طبيعة الأشياء" هذه جدار، جدار قديم معشب كثيرا النتوءات والندوب، يحجب على الناس الهواء النقى الصافى ويحول بينه وبين أن يعيش حياته سعيداً هانئاً. بل أن عبد ا بن عبد ا قرر بينه وبين نفسه أن يتولى مهمة تهديم الجدار، وذات صباح بدلا من أن يمشط شعر رأسه، ويزرر جاكيتته، ويلف عنقه "بكرافتة " يحكم ربطها... ربما يكون مقبولا فى أعين أصحاب العمل، بدلا من ذلك حمل فأساً على كتفه... وخرج من البيت... وفى ذهنه صورة جدار قديم معشب... يجب أن يحيله بهذا الفأس إلى أنقاض.

عبد ا بن عبد ا سار فى الطريق، ماراً بالنـاس وبالسيارات والعربات التى تجرها الخيول والحمير.. دون أن يلفت انتباهه شيء... مر – فى طريقه – بالمقبرة التى اعتاد أن يمر بها كل يوم والتى يخاف أن تهب فى وجهة أشـباح الموتى كلما عاد إلى البيت متأخراً ذات ليـل.. ولأول مـرة يشعر بتعاطف كبير معها... قبورها، ترابها، ها هنـا كـل شيء جاف، لأنه نتاج أنفاس قد جفت هنـا الأرض حبلـى باجنة ميتة، والأعشاب هنا لا تروى بالمـاء... هـى هنـا ترتشف بعروقها دماء البشر لتنمو... والتراب فقد خاصـيته الترابية.. هو هنا أمخاخ بشرية، أملاح بشرية... هـو هنـا تراب ممسوخ... كم حياة اندفنت هنا... مائة حيـاة.. ألـف حياة ... آلاف الحيوات تفسخت وتحللت وذابت... صـارت ترابا ممسوخاً بالحقيقية. الإنسان هنا يعود إلـى أصـله... التراب يعود إلى التراب، الطين يعود إلى الطين... ونظـر عبد ا بن عبد ا إلى نفسه، حياته هذه التى ترهقه وتشقيه وتعذبه ويحمل من أجلها الفأس ليحطم الجدران، اليست هـى أيضاً ستئول إلى هذا المصير "حفنة من التراب الممسوخ".



وفوجئ عبد ا بن عبد ا – خلال تمشيه بجوار المقبرة – بمجموعة من الناس لا يعرفهم يسحبونه من يده إلى داخل المقبرة... وهناك ثمة نعش رجل ميت مسجى على الأرض وسمعهم يقولون.

لقد انتظرناك طويلا. أين أنت؟ ألست أنت الذى تحفر القبور؟ يالك من حفار كسول... هيا احفر بسرعة.

لقد ظنوا عندما رأوا الفأس فوق كتفه أنه هو حفار القبور، وقبل أن يرد عليهم قائلاً.. لست أنا الذى يحفر القبور، إننى ذاهب فى مهمة كبيرة، أنا ذاهب بفأسى لأهدم جداراً قديماً معشباً كثير النتوءات والندوب. قبل أن يقول هذا تذكر أنه لا يملك مليماً فى جيبه، وأنه منذ يومين لم يجد سيجارة يدخنها، وإن ابنته قالت له قبل أن يخرج من البيت – أنا "جعانة يا بابا".

وإن امرأته أصبحت جلدة وجهها صفراء... تذكر كل ذلك وتذكر أنهم ينفحون الذى يحفر القبور بعض النقود..

إذاً لا بأس.

وبدلاً من أن يتكلم، رفع الفأس عالياً، وهو به يمزق جثة الأرض.

ومن يومها وعبد ا   بن عبد ا   يمزق بفأسه جثـة الأرض ن ليحشر فى بطنها جثث الأموات من الناس.

ووجد عبد ا   بن عبد ا   راحة كبـرى فـى حفـر القبور.

هو هنا يخدم " الموت"، هو سعيد لأنه فى خدمة هذا العادل الكبير، فالوحيد الذى يقف عنده كل الناس سواء هـو "الموت"، بل منذ يومين فقد حفر عبد ا   بن عبد ا   حفـرة ليدفن بها جثة أحد البهوات الكبار، كان سميناً ومنتفخاً فـى أصبعه خاتم بآلاف الجنيهات، وفى جاراج بيته سيارات مـن كل نوع وأسهمه فى كل شركة، وأرصدته فـى كـل بنـك، وقصوره فى كل مدينة...

وفى نفس اليوم وبجواره تماماً حفر قبراً بنفس الحجم لشحات عجوز. هم هنا سواء الكل يضمهم تـراب واحـد، وتأكل لحومهم ديدان وخنافس واحدة... بل إن الخنفسة التى تأكل لحم البيك هى نفسه التى تأكل لحم الشحات... الشجعان والجبناء... الشحاتون والبهوات. الكـل يجتمعـون قطعـة ممضوغة من اللحم فى أحشاء الخنفسة.

باللعدل. كان عبد ا بن عبد ا يتوهج سعادة لأنـه أحد خدام هذا الحاكم العادل.

إلى أن كان يوم. عندما استيقظ فى الصباح، فوجـد طفلته " إيمان " مريضة.. نبضها عال وحرارتهـا مرتفعـة، أنفاسها تخرج من بين شفتيها متهدجة متقطعة..

وذهب مسرعاً يحضر لها الطبيب وعندما رجع مـع الطبيب وجد قد أسلمت الروح.

وخلال بكائه وخلال عمله فى حفر القبر لها، وخلال إهالة التراب على جثتها الصغيرة كان عبد ا بن عبـد ا يراجع رأيه حول عدالة "الموت" لماذا يرتكب الموت جريمة قتل " إيمانه " الصغيرة الوديعة إذا كان عادلاً ... لماذا؟ أما رأى جدائل شعرها السوداء مزينة بالشريط الأحمـر، أمـا هزته خضرة عينيها والبراءة التى تتألق منهمـا.. أمـا رأى ابتسامتها اللذيذة حتى تظهـر أسـنانها بيضـاء وصـغيرة ومستدير كعقد من عقيق أبيض..

أما سمع لثغة لسانها اللذيذة، وضحكها التـى تـرن كالجرس السعيد.

لا ... إن الموت – إذاً ليس عادلا، إن الذى يقطـف زهرة صغيرة كإيمان دون أن ينظر إلى براءتهـا وجمالهـا وعمرها الوردى، هو ليس عادلاً إن هو إلا مجرم دنس.

إن الموت مجرم.

ووضع عبد ا بن عبد ا يده على أولى اكتشافاته

- الموت... يجب أن يموت

وبلا تردد أو إحجام، بل بهمة وحماس ذهب يبحـث عمن يستطيع أن يقتل الموت. ليذهب إذاً إلى الشجعان.. فلا بد أنهم قادرون على قتله.

ها هنا فى إحدى أركان المقبرة المظلمة، زاوية يعقد بها الشجعان اجتماعاتهم الخطيرة دائماً، سوف يساعدونه فى هذه المهمة ... فهو طالما حمل سرهم، وكان أميناً دائماً على هذا السر وذهب إليهم.

نعمتم مساءاً... أيها الشـجعان. فتحصـوا وجهـه جيداً... وردوا

نعم مساؤك يا عبد ا بن عبد ا .

من ستقتلون هذه المرة أيها الشجعان؟

لن نقتل، سنغسل، العار، عامر بن شـيحة، أخونـا وابن قبيلتنا. هل تعرفه؟ لقد قتلوه.

وستقتلون الذى قتله... أليس كذلك أيها الشجعان؟

نعم ... هو كذلك يا عبد ا بن عبد ا .

وهل تعرفون من هو القاتل؟

إنه أحد أولاد قبيلة (الغزلان).

لا ... إن الذى قتل أخاكم عامر بن شيحة... عـدو أخر.

هل تعرفه يا عبد ا بن عبد ا ؟

نعم، أعرفه أيها الشـجعان، فقـد زار بيتـى هـذا الصباح.

من؟

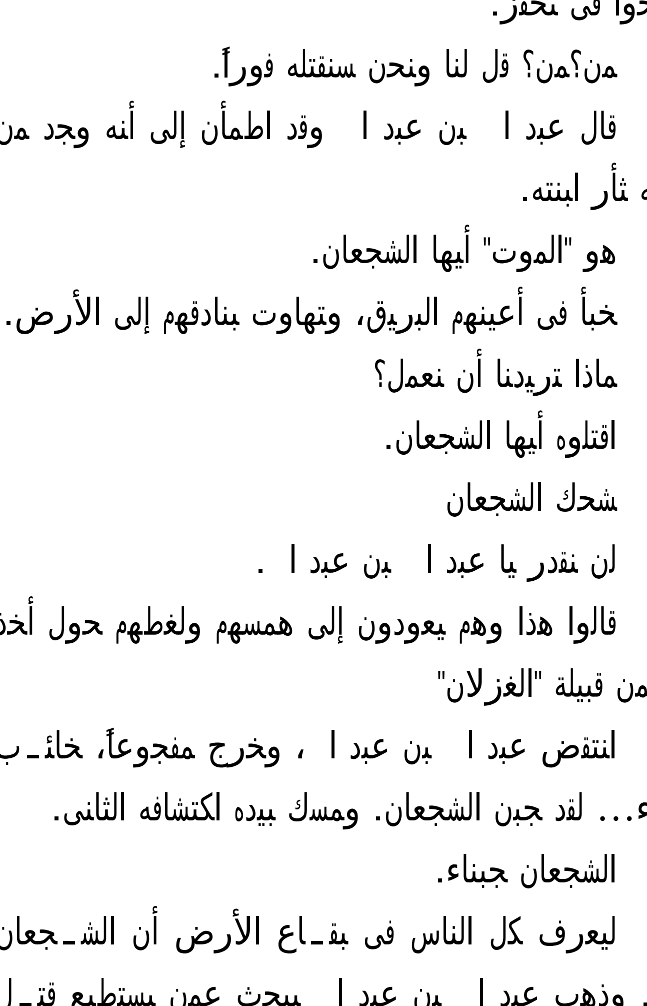
هو الذى قتل – مع شروق الشمس هذا اليوم –ابنتى.

من؟

هو الذى سيقتلكم أيها الشجعان إن لم تبادروا بقتله.

من؟ من؟

هو ليس عدواً لقبيلتكم فقط... هو عدو كل القبائـل كل الأوطان، كل البشر.



هيأ الشجعان بنادقهم ولمع فى أعينهم بريق الهجـوم وصاحوا فى تحفز.

من؟من؟ قل لنا ونحن سنقتله فوراً.

قال عبد ا بن عبد ا وقد اطمأن إلى أنه وجد من يرد له ثأر ابنته.

هو "الموت" أيها الشجعان.

خبأ فى أعينهم البريق، وتهاوت بنادقهم إلى الأرض.

ماذا تريدنا أن نعمل؟

اقتلوه أيها الشجعان.

شحك الشجعان

لن نقدر يا عبد ا بن عبد ا .

قالوا هذا وهم يعودون إلى همسهم ولغطهم حول أخذ الثأر من قبيلة "الغزلان"

انتقض عبد ا بن عبد ا ، وخرج مفجوعاً، خائـب الرجاء... لقد جبن الشجعان. ومسك بيده اكتشافه الثانى.

الشجعان جبناء.

ليعرف كل الناس فى بقـاع الأرض أن الشـجعان جبناء. وذهب عبد ا بن عبد ا يبحث عمن يستطيع قتـل

الموت غير الشجعان لطالما ملأت أسماعه منذ أن كان طفلا الحواديت حول الفارس الذى يعيش خارج المدينة عن قامتـه العريضة وعضلاته الفولاذية، ونظراته القويـة الصـاعقة، وأيضاً عن هجماته فى المعارك وعن حصانه الذى يسـابق الريح فى عدوه وعن سيفه الذى يم يستعصى عليه رأساً فى يوم من الأيام وصاح سيفه الذى لم يستعصى عليه رأساً فـى يوم من الأيام وصاح.

سأذهب إليه.. إلى ذلك الفارس البطل، الراكب أبـدا جواده، الشاهر أبدأ سيفه.

فهو الوحيد القادر على أن يقتل الموت.

وعلى أبوابه المدينة سأل

أين أجد الفارس

ستجده فى البادية

أعرف ولكن أى طريق أسلك؟

كل الطرق تودى إليه، شمالا، شرقاً جنوباً غربـاً.. ستلتقى به أينما اتجهت، ألا تعرف أن الفارس المنتشر.

شكراً، لقد عرفت.

لا تنسى يا هذا أن تكلمه قبل أن تصل إليه، وتعلمه من بعيد، من أنت؟ وماذا تريد؟ وإلا قتلك.

سأفعل:

وأوغل بخطاه خارج المدينة، وبعد أن سار حتى أعياه السير، تلامح طيفاً بعيداً عرف فيه الفارس... إذاً هو الفارس... لا كلمة من هنا...

أيها الفارس البطل أنا عبد ا ، أتيت أريدك أن تقتل عدونا المشترك الذى قتل طفلتى الصغيرة، وقتل آلاف الأطفال وأباد مئات الأجيال... الموت... هيا أشهر سيفك، وانطلق بجوادك وحز رأسه المشئوم... كسر بسيفك الفولاذى مناجله القيمة الصدئة... وارح العالم من شروره هيا.. أما سمعتنى أيها الفارس؟

وتماوجت الأودية التى حوله... والهضاب التى تطل برأسها من بعيد.. بالصوت

- الفارس، ما عاد فارساً.

وتجاوبت أصداء النداء فى كل مكان...

- الفارس ما عاد فارساً.

وعادت فتحات الفضاء تقذف بالصوت فـى صـدى عميق أجوف حزين.

- الفارس ما عاد فارساً..

نصاب السيف فى يده مكسـور... وحصـانه فـى الحرب مات.

واهتزت ملامح عبد ا بن عبد ا ، واهتزت رموش عينيه اهتزازات كثيرة وسريعة... وحدق فى الطيـف مـن جديد.

ولأول مرة تتضح له الصورة... رأى الفـارس ... ملابسه مخضلة بالدم... ويده خالية من السيف سوى نصـل مكسور... وجواده المشهور لم يكن معه... كـان الفـارس وحيداً ... وعجوزا. وقديماً ويخط بأقدامه على الرمال.

وفر عبد ا بن عبد ا راجعاً... وعنـدما سـألوه على أبواب المدينة، هل وجدت الفارس أنبأهم عبـد ا بـن عبد ا باكتشافه الثالث... قائلاً.

- الفارس، ما عاد فارساً نصاب السيف فـى يـده مكسور، وحصانه فى الحرب مات.

وفى المدينة زادت حيرة عبد ا بن عبـد ا ، وزاد إصراره، أن الموت يجب أن يموت ولكن؟ كيف الشجعان.. جبنوا، والفارس فقد فروسيته، إذاً من؟ من؟ ليس أحد قـادر سوى "ا لقضاء".

القضاء هو العادل الحقيقى الذى سيقتص له ممن قتل أبنته.

وذهب إلى المحكمة ...

وفى القاعة الكبيرة رأى على المنصة "القضاء" كان شعر رؤوسهم مجللاً بالشيب، وعلى وجوههم ترتسم ظـلال كثيرة من التجاعيد... كأنها واحات العدالة.

واطمأن عبد ا ببن عبد ا ، وتنفس بارتياح شـديد وقال فى نفسه.

- ها أنا بين أيدى حراس العدالة.

وزاد اطمئناناً وارتياحاً عندما رأى ميـزان العدالـة مرسوماً على الجدار من وراء القضـاة... كـان الميـزان مستقيماً، وعادلاً حقاً.

وارتفع صوته فى خشوع كأنه يرتل طقوسا دينيه.

- أيها القضاة المبجلون؟أيا حراس العدالة الأفاضل؟ يامن لولاكم ما رتعت الطمأنينة والسلام فى ربوع العالم...

بعد أن حياهم بهذه العبارات المشكورة، رأى عبد ا بن عبد ا أن يدخل فى صميم الموضوع.

أريدكم اليوم أن تقتصون لى..

من أنت؟ وممن تريد أن نقتص لك؟

أنا عبد ا بن عبد ا ، أريد القصاص مـن مجـرم زنيم... ارتكب جريمة قتل طفلتـى الصـغيرة مـع سـبق الإصرار والترصد... أليس الحكم فـى هـذه الحالـة هـو "الإعدام"؟

درس القضاة رؤوسهم بعضها فى بعض... ثم جاءه الرد.

نعم... لكن من هو القاتل؟

هو الموت أيها القضاة المبجلون.. هيا اقبضوا عليه، واحكموا عليه بالإعدام شنقاً لينال جزاءه العادل على أيديكم.

وعاد القضاة يدسون رؤوسهم بعضها فى بعـض... ثم ردوا عليه درهم الأخير

لن نقدر يا عبد ا بن عبد ا .

حتى القضاء يارب؟

وخرج عبد ا بن عبد ا مصـدوما... ليكتشـف اكتشافه الرابع.

لا ... إن القضاء ليس عادلا.

إن كل موازين القضاء فى العالم تهتز، أنهـا تطـب إلى أسفل وأعلى، أنها لا تعرف كيف تزن بحق.

إن ميزان القضاء كميزان بائع جوال، لا مستقيم ولا معتدل.

ورجع عبد ا بن عبد ا إلى بيته...

وعندما رأى الدموع تلمع على وجنات زوجته، تذكر ابنته التى ماتت، وتذكر أن الفارس ما عـاد فارسـأ ن وإن الشجعان جبناء، وإن القضاء ليس عادلا. وإن الموت لم يجد من يقتله.

وعندما تذكر كل ذلك، قرر عبـد بـن عبـد ا أن يحزن.

منذ اليوم ستكون دقات قلبه حزينة، وإيقـاع خطـاه على الطريق إيقاعاً حزيناً، والنظرة من عينيه تطل حزينـة،

والصوت يخرج من حنجرته ملوناً بالحزن... وأنفاسه تتردد بحرقة وبحزن.

وكل شيء فيه... سيكون حزينـاً. سـيفتح للحـزن أبواب بيته، وأبواب قلبه، وأبواب نفسه؟ سيهيئ له عشاً هادئاً بين ضلوعه.

وفوجئ عبد ا بن عبد ا باكتشاف خـامس فقـد اكتشف أن الحزن ما عاد بقادر علـى أن يجعلـه حـزين. اكتشف عبد ا بن عبد ا أن هيكله الجسمانى الإنسانى هذا، لم يعد ممكناً أن يسرى مفعول الحزن بين عروقه فجسمه هذا الهش الرخو المرن اللين، هو فى حقيقته منيع كالقلعـة إنـه آخر نتاج الأجيال، وإن آلاف آلاف الأجيال التـى عبـرت جسر الحياة من قبله قد أودعت جسمه كل أسـرارها وورث كل عذاباتها وآلامها. فجسمه الآن مستودع لعذابات البشر.

إن آلام آدم الأولى، هى هنـا فـى جسـده تعتقـت واختمرت وامتزجت مع عذابات كل الأجيال التـى توافـدت بعد آدم...

إن كل خلاياه، كل المسام فـى جسـده... محشـوة بعذابات الأجيال هى أدرج مليئة بميراث لا حد له مـن ألـم البشر...

من الآلام المعتقة التى تجعل جسده الآن صلباً منيعاً أمام الحزن... إن مفعول الحزن يتبخر عندما يصـل إلـى جسمه الإنساني... بل إن الحزن يفقد مناعته أمـام مناعـة جسده... وبدلا من أن يحزن... يرتـد الحـزن حزينـاً... ياللاكتشاف البالغ القسوة...

إن الحزن يرتـد أمـام جسـده المنيـع... حزينـاً مهموماً... الحزن حزين، الحزن...

ذهب عبد ا بن عبد ا يبشـر باكتشـافاته بـين الناس.. وذات يوم رأى نفسه وسط جمـوع كثيـرة تـردد اكتشافاته وترفعه بين الحين والحين على أعناقها.

وتساءل عبد ا بن عبد ا ن وسط الزحام.

أين أنا؟

وردوا عليه

لم يعترف العقلاء باكتشـافاتك، وهـا أنـت وسـط المجانين؟

أنت اليوم مجنون يا عبد ا بن عبد ا ؟

ألتفت عبد ا بن عبد ا يستطلع وجوه المجـانين، ورآهم من حوله فرحين بترديد اكتشافاته... واستطاع عبـد ا بن عبد ا فى هذه اللحظة أن يمسك بكلتا يديه اكتشـافا جديداً.

- هاكم آخر اكتشافاتي...

وبلغهم عبد ا بن عبد ا باكتشافه السادس الـذى أخذوا يرددونه وراءه... كان الاكتشاف السادس يقـول "إن العقلاء الوحيد بن فى هذا العالم... هم المجانين".

الاطفال

- ١ -

استأذن الطفل الذى ولد لتوّه فى أن يغادر مستشفى الولادة للحظة صغيرة، يطمئن فيها على سير الأمور فى وكالته التجارية ثم يعود الى سرير الولادة.

وصل الطفل الذى ولد منذ خمس دقائق إلى مكان الوكالة. اكتشف لدهشته الشديدة أن الوكالة قد اختفت فجأة من مكانها، ولم يجد لها أثرا على الإطلاق، أحس بالأمر كأنّه طعنة خنجر، هم بأن يعوى أو يصرخ لكنّه خوفا من شماتة الأعداء لم يقل شيئاً، عاد إلى مستشفى الولادة مسرعا، اندس فى لفائفه وطفق من فوره يبكي، كان يعتقد أن صاحب الشركة اليابانية الذى منحه - من قبل أن يولد - توكيلا لبضائعه فى ليبيا.. قد غشّه وضحك عليه!.

- ٢ -

استأذن الطفل الذى ولد لتوّه ممرّضة المستشفى، وطلب أن تسمح له باستعمال الهاتف، أخرج من لفائفه مفكرة، وأدار رقما، وبقى للحظة ينتظر الرد، جاء الرد فحدد موعدا مع المسئولين فى الإذاعة، وذهب بعد ذلك بقماطه إلى الإذاعة المرئيّة فعينّوه على الفور كاتبا للتعليقات والأحاديث، ومقدما لبرامج الفكر والأدب، وعهدوا إليه باختيار الأشرطة التى تقدّم للمشاهدين أثناء السهرة، وفوضوه فى شراء البرامج التى تأتى من بيروت حسب اختياره وعلمه وذوقه وثقافته.

- ٣ -

رأى الطفل الذى ولد منذ لحظات قصيرة الممرّضة تختفى خلف الباب، فانتهز فرصة غيابها وأخرج من لفائفه علبة سجائر وأوقد عود ثقاب وأشعل لفافة تبغ وبدأ يدخن، دخلت الممرّضة وفاجأت الطفل مع السيجارة فى حالة تلبس، غضبت لأنه خالف أوامر المستشفى وهدّدته بالطرد حالا إن

لم يمتنع عن التدخين، ضحك الطفل وخاطبها بلهجة ساخرة (وماذا تسمين مغازلاتك مع الممرّضين) جمدت رعبا، خافت الممرّضة أن يوشى بها الى مدير المستشفى، وفى محاولة لكسب ودّه قامت على الفور وأحضرت للطفل الذى ولد منذ لحظات قدحا من القهوة لتزيد من متعته فى التدخين!.

- ٤ -

استأذن الطفل الذى ولد لتوّه أمّه، واكترى سيارة أجرة من أمام مستشفى الجلاء وطلب أن تقلّه إلى مكاتب (الفجر الجديد). أدرك السائق من لهجة الزبون أنّه قادم جديد الى البلاد فطلب خمسين دينارا، نفحه النقود وصعد عدوا إلى مكاتب الصحيفة، حرّر إعلانا بتعديل عمره قال فيه إنّه يبلغ الآن ثلاثين عاما وليس خمس دقائق كما ورد خطأ فى سجلات مستشفى الجلاء، وذهب من فوره وقدم طلبا بمنحه تأشيرة خروج لقضاء إجازة عيد الفطر بجزيرة مالطا، وعاد بعد ذلك إلى المستشفى واندس فى صمت بين لفائفه ينتظر بفارغ الصبر أن يأتى العيد !

- ٥ -

استأذنت الطفلة التى ولدت لتوّها فى الخروج من المستشفى لحظة قصيرة لترى المدينة، سمع بالخبر أفراد قبيلتها فى ضاحية بعيدة فاكتروا عشر شاحنات وجاءوا بعصيهم وفؤوسهم ومناجلهم يرددون جميعهم أغنية فهد بلان عن العار والثأر، ويعلنون على أهل المدينة الحرب، فقد أغضبهم أن تخرج طفلتهم من المستشفى فور ولادتها دون أن ترتدى - الفرّاشية -.

- ٦ -

استاء الطفل الذى ولد لتوّه من معاملة الممرّضة فانتهز فرصة غيابها لحظة قصيرة، وانسلّ يعدو من المستشفى وعبر الشارع إلى الناحية الأخرى حيث فندق البحر الأبيض، ادعى الطفل الذى ولد لتوّه أنه مفكر عربى كبير كان يعيش فى أوروبا، حجز له موظف الاستقبال غرفة بالفندق وقيد اسمه فى قائمة ضيوف الحكومة !

- ٧ -

خرج الطفل الذى ولد لتوّه من مستشفى الولادة، دون أن يستأذن أحدا، وجلس الى أقرب مقهى صادفه فى الطريق، ورأى بجواره جماعة تتحدّث فى السياسة، فدس رأسه معهم، وبدأ من فوره يشرح وجهة نظره فى الأوضاع السياسية بالمنطقة.

- ٨ -

سأل الطفل الذى ولد لتوّه أمّه، إن كان له قريب فى المصرف. قالت: لا، بكى الطفل فقد ضاع القرض، سأل إن كان له قريب فى البلديّة. قالت: لا، بكى الطفل فقد ضاعت الأرض، سأل إن كان له قريب فى لجان المساكن الحكومية. قالت: لا، بكى الطفل فقد ضاع البيت، سأل إن كان له أقارب على الإطلاق. قالت: إن لك خالا يعمل مديرا لإحدى المؤسسات الحكوميّة، شرع الطفل يضحك على الفور، وانسل من لفائفه، وذهب يعدو عاريا حتى وصل إلى خاله، رأى الخال أن فى الطفل شبها من أخته العزيزة، فعينّه فى التو واللحظة نائبا له، وأوكل إليه التوقيع باسمه فى العقود

والصفقات والمراسلات وصكوك البيع والشراء والاعتمادات المصرفيّة.

- ٩ -

نسى الطفل الذى ولد حديثا أن يحضر معه شهادة الدكتوراه التى حصل عليها من أمريكا قبل أن يولد !.

بكى الطفل لحظة الولادة وهو يتذكر أنّه لن يستطيع العودة إلى بطن أمّه لإحضار الشهادة، وأن كل التعب الذى قضاه فى إعداد الرسالة والسنين التى قضّاها جريا وراء الشهادة، كل ذلك ذهب الآن أدراج الرياح !

وعندما رأى فى عنبر المواليد الجدد أن جميع المواليد قد جاءوا يحملون فى أيديهم شهادات فى الطب والفلسفة وأصول التدريس والهندسة، وأنّه الوحيد الذى كان عبيطا ونسى الشهادة فى بطن أمّه اعتصر قلبه الحزن، ورأى المستقبل يقعى أمامه ذئبا يفتح فما بأنياب كأنها المسامير الصدئة، وملأ الخوف صدره، إذ كيف سيواجه المستقبل الذئب بلا شهادة تدافع عنه !!

دس الأطفال فى عنبر المواليد الجدد رؤوسهم فى بعضها البعض كأنهم يتدبّرون أمرا خطيرا، ثم قرروا بالإجماع إقامة حفلة لعيد ميلادهم، ذهب الطفل الذى يكبرهم سنّا بخمس دقائق فاستأجر فرقة تعزف موسيقى الجاز، وتفرغ الباقون لإعداد العنبر ليكون مكانا مناسبا لإقامة الحفلة، فأوسعوا بين الأسرة مكانا للفرقة، ومساحة أخرى خصصوها للرقص، جاءت الفرقة وبدأت العزف، فى حين ذهب كل طفل إلى إحدى زميلات العنبر ينحنى فى أدب شديد أمامها ويدعوها الى الرقص بلباقة ورقة قائلا بلغة فرنسّية أنيقة تعلّمها للاستعمال فى مثل هذه المناسبات " دانسيه أفيك موا "؟ فتستجيب له فى خفر وحياء، وابتدأ الحفل، وانهمك الجميع فى الرقص وارتفعت حناجرهم الصغيرة بأغنية جماعيّة عن عيد الميلاد.

كانت تعليمات المستشفى بمنع الرقص والموسيقى والغناء داخل المستشفى تعليمات محددة وصارمة لا تقبل المراجعة أو النقاش، فنشأت أزمة كبيرة داخل مستشفى " الجلاء " للولادة، وبين المواليد الجدد والممرّضين القائمين

على تنفيذ هذه التعليمات، وكان رأى المواليد الجدد أن هذا حق لا يجب أن يحرمهم منه أحد، وإذا كان الناس يحتفلون بعيد ميلادهم وهم فى الستين أو السبعين من العمر، فكيف يحرم من هذا الحق من أراد أن يحتفل بأول أيّامه فى الحياة، وكان رأى الممرضين أن مجيء الإنسان إلى الحياة حدث لا يستحق كل هذه الدوشة ومناسبة ليست جديرة بأى احتفال !.

ولم يذعن الأطفال.. فقد خرجوا على الفور من عنبر المواليد الجدد وذهبوا الى المحكمة يرفعون قضيّة ضد المستشفى، ويطالبون بحقهم فى الرقص والموسيقى والغناء !

- ١١ -

أوقف شرطى المرور سيارة كانت تخترق الشارع بسرعة جنونيّة، لم تقف السيارة، فاستنفر عددا من زملائه، وذهبوا جميعا فى سياراتهم ودرّاجاتهم الناريّة يطاردون هذا السائق الذى جنّ فمضى يخترق فى سرعة جهنميّة شوارع المدينة، ويدخل فى طرق ممنوعة، ويركب حينا فوق الأرصفة يهزأ بالموت ويضرب عرض الحائط بالقانون، ولا يقيم اعتبارا لشيخ أو امرأة أو طفل ممن يعبرون الطريق، تمكنت شرطة المرور فى النهاية من إيقافه، كانوا حذرين

فتقدموا نحو السيارة ببطء شديد، خوفا من أن يكون هذا السائق الذى يركبه مارد من الجن يحمل سلاحا قد يقتلهم به. كان أكبرهم رتبة يسير فى المقدّمة، فوجئ وهو يصل الى السائق أنّه لم يكن سوى طفل فى سن الرضاعة لم يمض على مولده سوى أيام قليلة. ظن أن فى الأمر مكيدة، سأل عن الأوراق ورخصة القيادة، لم يكن طامعا بأيّة إجابة إلا أن الطفل نحى جانبا " البزازة " التى كانت فى فمه وقال للشرطى إن السّيارة ملكه وإن هذه أوراقها وهذه أيضا رخصة القيادة، وقف الشرطى وزملاؤه مبهورين لا يعرفون للأمر تفسيرا، ويتبادلون النظرات فى خوف وحيرة، وأعادوا إليه الأوراق وتركوه يمضى دون إبطاء، لأن فى الأمر شيئا فوق المنطق والعقل والقانون!

- ١٢ -

أحس الطفل الذى ولد حديثا أن له موهبة فى الشعر، وأنّه قد هبط من بطن أمّه شاعرا. ترك زجاجة الرضاعة جانبا واستعار من الممرّضة قلما وورقة، وكتب فى سرعة عجيبة قصيدة تقليديّة التزم فيها الوزن والقافية واستعمل ألفاظا قديمة مهجورة كى يرضى أذواق نقاد الأدب والشعر

فى ليبيا، وقرّر - بعد أن فرغ من كتابتها - تلاوة القصيدة على زملائه فى عنبر المواليد الجدد ومن كان معهم من ضيوف وممرّضين وأطبّاء، لم يكن المستشفى بيئة صالحة لقراءة الشعر، فتسلل هاربا من المستشفى وذهب باحثا عن قاعة أو منتدى يقرأ فيه للناس قصيدته، تأسف عندما لم يجد فى مدينة طرابلس شيئا من هذا القبيل، وهم بالعودة إلى سريره فى عنبر المواليد الجدد وتمزيق القصيدة وهجرة قول الشعر والانكباب على الرضاعة كما يفعل غيره من الأطفال، إلا أن خاطرا جاء يلح عليه أن يذهب إلى الإذاعة ويجرّب حظه هناك.

ذهب الى الإذاعة فوجد ترحيبا كبيرا به وفهما عميقا لموهبته وملكاته حيث اعتمدوه على الفور مؤلفا وحيدا لكل كلمات الأغانى فى الإذاعة، وكان كلما كتب أسطرا - فى لحظات استراحته من الرّضاعة - يرمى بها إليهم فيأخذونها ويضعون لها الموسيقى، ويأتون بمطرب كبير يغنّيها، ويذيعونها على الناس صباح مساء !

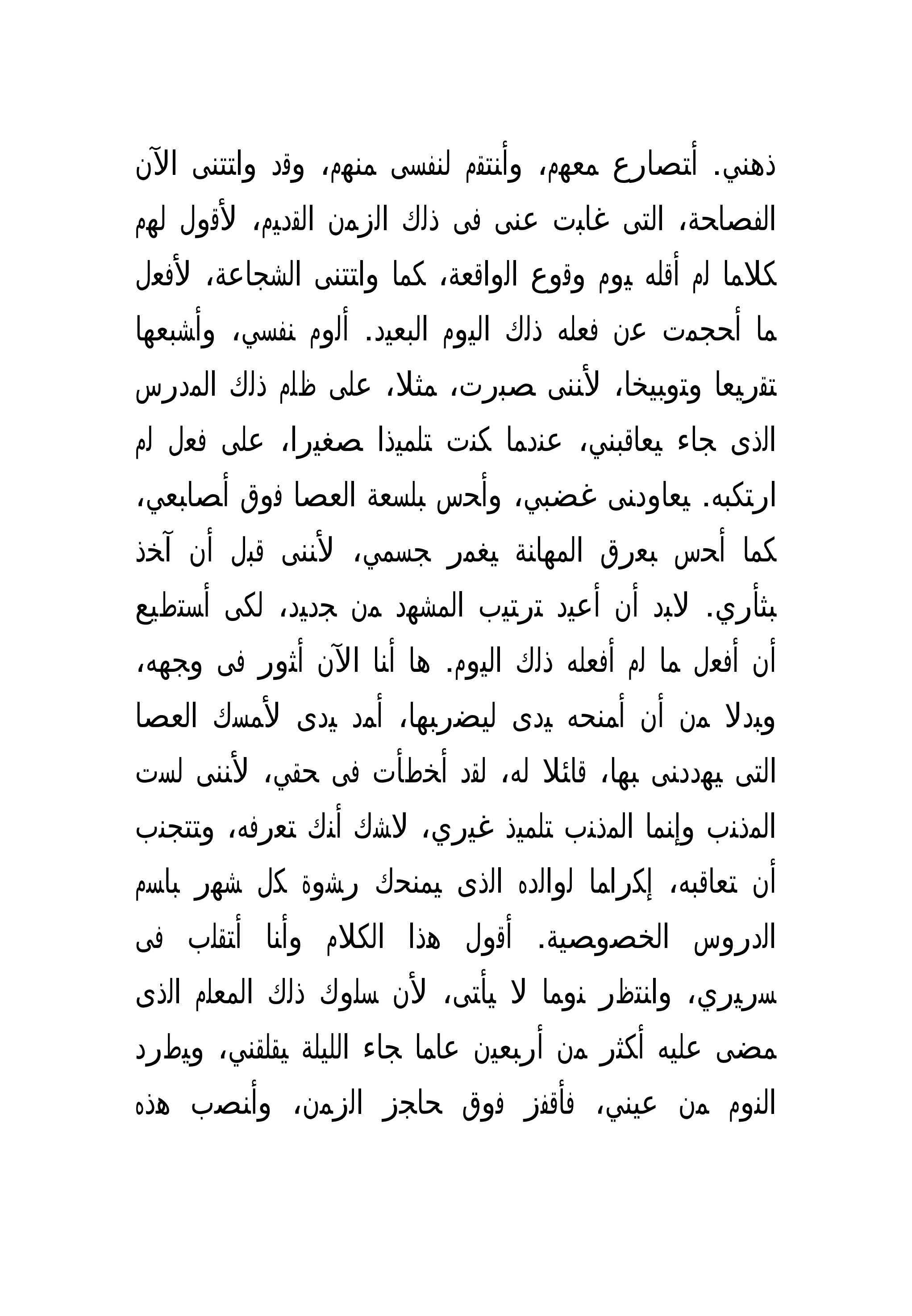
استاء الطفل الذى ولد حديثا عندما علم أن أمّه امرأة أمّية لم تذهب فى حياتها إلى المدرسة ولا تعرف قراءة ولا كتابة، وتأسّف فى نفسه كثيرا لأنّه لن يجد على يديها تربية تليق بأمثاله من أبناء الجيل الجديد، غمرت قلبه الصغير سحب كثيفة من القلق والحيرة، ولم يجد إلا مولودة جديدة صادف أنها تنام على السرّير المحاذى له، فأسرّ لها بهمومه وحدثّها عن خوفه من المستقبل، وما أن سمعت الصغيرة هذا الكلام حتى انهمرت فى بكاء مرير وقالت والدموع تبلل وجهها كلّه، إنها أسوأ حظا منه، وسردت له قصّة والدها الذى يرى أن رسالته فى الحياة هى سجن النساء، فحكم بالسجن على أمها كما سجن كل أخواتها الأكبر سنّا منها، ولن يكون مآلها إلا السجن على يديه، وارتداء لباس كريه اسمه " الفراشيّة "!

تأثر الطفل لحالها وتمنّى لو كان ماردا كبيرا يستطيع أن يذهب الآن ويقتصّ من هذا الأب الظالم، لكنّه لم يجد ما يحتج به على مساوئ الدنيا سوى البكاء مثلها، فطفق يبكي.. ويبكى.. ويبكي!

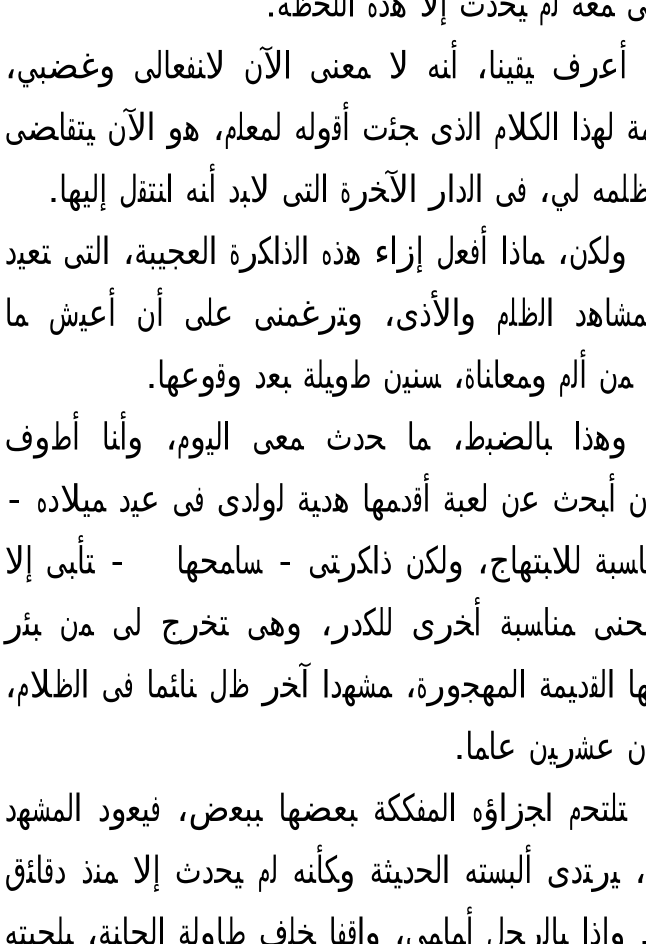
وامتلأ عنبر المواليد الجدد بالبكاء !!

الانتقام

تقلقنى دائما هذه المشاهد، التى أهملتها الذاكرة زمنا طويلا، وخبأتها فى جيب من جيوبها السرية، ثم أخرجتها فجأة إلى سطح الأنا التى تتعامل مع الدنيا فتظهر دون سبب واضح لظهورها المباغت. وتأتى مصحوبة بنداءات تطالب بالانتقام، وتضج بأماكن ووجوه وأصوات وخصومات قديمة، ظننت أنها سقطت من ثقوب الذاكرة بحكم التقادم ولكنها ظلت تختبئ فى مكامنها، واختارت هذه اللحظة لمداهمتي، وقد حملت فى يدها سياطا تجلدنى بها، وتمنعنى من أن أهنأ بلحظات الراحة التى ينعم بها بقية الناس. وهى لا تأتى كما تأتى الذكريات الأخرى التى تحولت بفعل كيمياء الزمن، إلى أشباح وأطياف لا ملامح لها، وإنما تجئ وقد ارتدت أقنعة عصرية، وملابس تنكرية تخفى بها طبيعتها التى تنتمى إلى ماض بعيد، لكى توهمنى بأنها جزء من حاضر مازال يواصل فعله فى الواقع والحياة. فأجد نفسي، متورطا فى لعبة الانتقام وتصفية الحساب التى ساقتنى إليها، أشتبك فى خصومات انتهى زمانها، مع أناس لم يعد لهم وجود إلا فى



ذهني. أتصارع معهم، وأنتقم لنفسى منهم، وقد واتتنى الآن الفصاحة، التى غابت عنى فى ذلك الزمن القديم، لأقول لهم كلاما لم أقله يوم وقوع الواقعة، كما واتتنى الشجاعة، لأفعل ما أحجمت عن فعله ذلك اليوم البعيد. ألوم نفسي، وأشبعها تقريعا وتوبيخا، لأننى صبرت، مثلا، على ظلم ذلك المدرس الذى جاء يعاقبني، عندما كنت تلميذا صغيرا، على فعل لم ارتكبه. يعاودنى غضبي، وأحس بلسعة العصا فوق أصابعي، كما أحس بعرق المهانة يغمر جسمي، لأننى قبل أن آخذ بثأري. لابد أن أعيد ترتيب المشهد من جديد، لكى أستطيع أن أفعل ما لم أفعله ذلك اليوم. ها أنا الآن أثور فى وجهه، وبدلا من أن أمنحه يدى ليضربها، أمد يدى لأمسك العصا التى يهددنى بها، قائلا له، لقد أخطأت فى حقي، لأننى لست المذنب وإنما المذنب تلميذ غيري، لاشك أنك تعرفه، وتتجنب أن تعاقبه، إكراما لوالده الذى يمنحك رشوة كل شهر باسم الدروس الخصوصية. أقول هذا الكلام وأنا أتقلب فى سريري، وانتظر نوما لا يأتى، لأن سلوك ذلك المعلم الذى مضى عليه أكثر من أربعين عاما جاء الليلة يقلقني، ويطرد النوم من عيني، فأقفز فوق حاجز الزمن، وأنصب هذه



المحاكمة لمعلمى القديم، وكأنه يمثل الآن أمامي، وكأن خصامى معه لم يحدث إلا هذه اللحظة.

أعرف يقينا، أنه لا معنى الآن لانفعالى وغضبي، ولا قيمة لهذا الكلام الذى جئت أقوله لمعلم، هو الآن يتقاضى جزاء ظلمه لي، فى الدار الآخرة التى لابد أنه انتقل إليها.

ولكن، ماذا أفعل إزاء هذه الذاكرة العجيبة، التى تعيد إنتاج مشاهد الظلم والأذى، وترغمنى على أن أعيش ما يرافقها من ألم ومعاناة، سنين طويلة بعد وقوعها.

وهذا بالضبط، ما حدث معى اليوم، وأنا أطوف الدكاكين أبحث عن لعبة أقدمها هدية لولدى فى عيد ميلاده - إنها مناسبة للابتهاج، ولكن ذاكرتى - سامحها - تأبى إلا أن تمنحنى مناسبة أخرى للكدر، وهى تخرج لى من بئر ذكرياتها القديمة المهجورة، مشهدا آخر ظل نائما فى الظلام، أكثر من عشرين عاما.

تلتحم اجزاؤه المفككة بعضها ببعض، فيعود المشهد طازجا، يرتدى ألبسته الحديثة وكأنه لم يحدث إلا منذ دقائق مضت. وإذا بالرجل أمامي، واقفا خلف طاولة الحانة، بلحيته الحمراء المدببة، ونظارته الطبية ذات الإطار المعدنى

الرفيع، وحاجبيه المعقودين فوق عينين صغيرتين كعينى جرد. يخدم زبائن الحانة، فى تلك المدينة، فى ذلك اليوم الممطر، منذ أكثر من عشرين عاما. ينتهى من خدمة الزبائن الآخرين فلا يبقى أحد غيري.

ينظر نحوى باستنكار وأنا أعاود تذكيره بالطلب الذى طلبته، ومتأففا يرمى أمامى الكأس ويلتقط من يدى النقود التى قدمتها له. ينهمك فى غسل الأكواب، ومسحها بالفوطة، وهو يخاطب زبونا آخر من أبناء جلدته، تصادف أن كان بجوارى يحتسى كأسه، قائلا له:

" لماذا يجب أن نخدم هذه النفايات البشرية«. يقولها دون أن يلتفت نحوي، ولكننى أعرف لحظتها أنه لا يقصد أحدا سواى بتلك الكلمات المهينة، المنقوعة فى عطن الحقد والعنصرية. أتظاهر بأننى لم أسمعه، وأقبض على كأسى بأصابع متشنجة، وأنا أحاول أن أسيطر على انفعالي. ثم أفرغ الكأس فى جوفى وأغادر الحانة على الفور. يستيقظ المشهد الآن بكامله فى ذاكرتي، وتستيقظ معه أمراض القرحة التى ابتلتنى بها مشاهد الظلم والأذى التى تلاحقني. أحس بالألم والمهانة، فأقول لنفسي، لماذا كنت جبانا إلى هذا

الحد. لماذا بقيت صامتا، وصبرت على اهانته وانسحبت من أمامه دون أن أرد عليه. لماذا لم أصفعه. أبصق فى وجهه. أرميه بالكأس حتى تتحطم عويناته الطبية فوق أنفه، قائلا له، انظر إلى وجهك فى المرآة أيها الوغد لتعرف أين هى النفايات البشرية، ومن منا يعيش على حساب الآخر، أنت أم أنا. انظر إلى السلالات التى أنجبتك لتعرف من منا كان نفاية بشرية يعيش على أذى الآخرين، أنا أم أنت.

أنتبه إلى أننى دخلت فى مرافعة تاريخية، قانونية، تدين سلوكه وسلوك أسلافه. مرافعة جاءت متأخرة عن ميعادها عشرين عاما. وأسأل نفسى لماذا غابت هذه الفصاحة لحظة احتياجى إليها، وكيف يمكن أن أعثر على آلة الزمان، التى تعيدنى إلى تلك اللحظة وذلك المكان، لأنصف نفسي، وبنى جنسي، من عنصرية رجل يشتغل جرسونا فى إحدى الحانات.

يأبى المشهد أن يغادر ذهني، حتى وأنا أدخل المتجر واشترى اللعبة وأغادر السوق. أحس بالإعياء، فأبحث عن كرسى فارغ أريح فوقه جسمي، وأنعشه بفنجان من شراب ساخن.

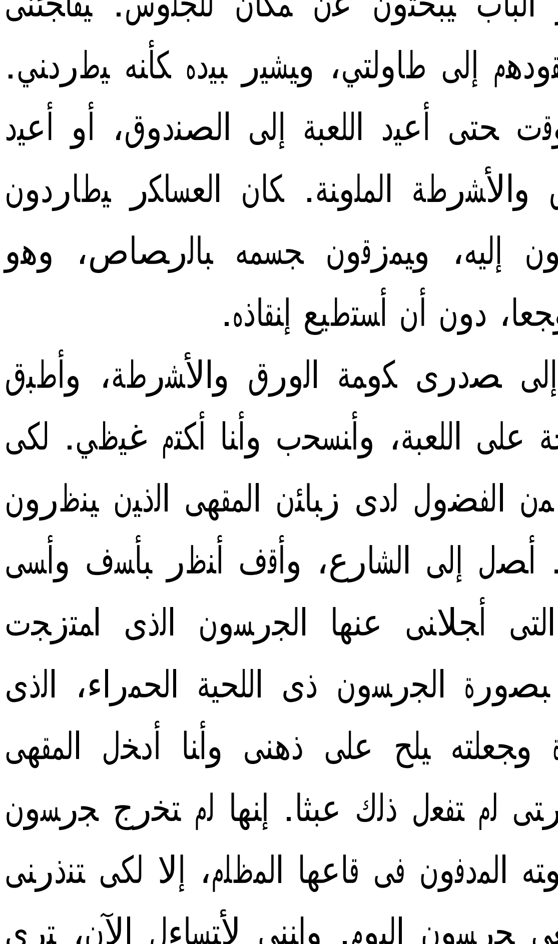
تلوح لى عبر جدار المقهى الزجاجي، طاولة فارغة، فأقصدها ومعى لعبة الصغير. أضع اللعبة فوق الطاولة، وأفض عنها الغطاء والأشرطة، وأخرجها من علبتها، وأحاول أن أتسلى بها، علها تطرد الضيق الذى يملأ صدري. لابد أن الولد سيفرح بها، فهى لعبة حديثة، من هذه الألعاب الالكترونية التى صارت تستقطب اهتمام الصغار. تشبه آلة حاسبة بحجم الكف، وقد حلت مكان اللوحة التى تحمل الأرقام، شاشة يظهر عليها رجال يتحاربون. تستغرقنى اللعبة وأنا أحاول أن أفك رموزها. لأكتشف أنها معركة بين العساكر وأحد اللصوص، والفوز معقود لمن يجعل اللص يهرب من شباك ورصاص العساكر. »هاهم يلقنون أطفالنا درسا تربويا بديعا، يليق بمعاملات الناس فى هذا الزمان« قلت لنفسي، وأنا أضع عقلى وقلبى فى خدمة هذا اللص، وأحاول أن أهرب به من هذه الكمائن الكثيرة التى ينصبها له رجال الشرطة. اندمج فى اللعب، فلا أنتبه إلى الجرسون الذى اخترق زحام الموائد، وجاء يقف بمحاذاتي. أسمعه يخرج صوتا لا معنى له، فأحس بالحرج وهو يراقبنى ألعب بحماس مثل الأطفال. وبلهجة مهذبة،

أسأله أن يحضر لى قهوة بالحليب. يهمهم بكلمات مضغومة بها نبرة احتجاج، فأظن أن احتجاجه جاء من طبيعة هذا الطلب الذى يريده أن يمزج القهوة بالحليب، فهو يضاعف العمل دون أن يضاعف الأجر، ولكن ماذا أستطيع أن أقول له، إننى أحب القهوة، وما الحليب إلا حيلة ألجأ إليها عندما أغلف به القهوة، لأخدع الجروح والقروح التى تملأ المعدة لكى لا تثور وتغضب عند وصول القهوة إليها. ولكننى قبل أن أرد عليه مبررا هذا الطلب، أسمعه يقول بلهجة صارمة:

- ألم تقرأ اللافتة.

عن أى لافتة يتكلم. لعلهم لا يبيعون القهوة. ولكن الآلة التى تصنع القهوة، والعامل الذى يقوم بإعدادها، كلاهما موجود خلف ذلك الحاجز الخشبي. وهاهم اناس حولى يشربونها، فما سر هذا الحديث الغامض عن وجود لافتة لاوجود لها. يتفضل الجرسون بشرح جملته الغامضة قائلا:

- يمكنك أن تبحث عن القهوة والحليب فى مكان آخر. أما هنا، فنحن نخصص هذه الساعة، لتقديم وجبة الغداء.



يقول جملته ويهرول لاستقبال زبائن دخلوا المقهى، ووقفوا بجوار الباب يبحثون عن مكان للجلوس. يفاجئنى منظره وهو يقودهم إلى طاولتي، ويشير بيده كأنه يطردني. لا يسعفنى الوقت حتى أعيد اللعبة إلى الصندوق، أو أعيد تغليفها بالورق والأشرطة الملونة. كان العساكر يطاردون اللص، ويصلون إليه، ويمزقون جسمه بالرصاص، وهو يصدر أنينا موجعا، دون أن أستطيع إنقاذه.

أضم إلى صدرى كومة الورق والأشرطة، وأطبق بأصابع متشنجة على اللعبة، وأنسحب وأنا أكتم غيظي. لكى لا أثير مزيدا من الفضول لدى زبائن المقهى الذين ينظرون بإشفاق نحوي. أصل إلى الشارع، وأقف أنظر بأسف وأسى إلى طاولتى التى أجلانى عنها الجرسون الذى امتزجت صورته الآن بصورة الجرسون ذى اللحية الحمراء، الذى أيقظته الذاكرة وجعلته يلح على ذهنى وأنا أدخل المقهى فأدرك أن ذاكرتى لم تفعل ذلك عبثا. إنها لم تخرج جرسون الأمس من تابوته المدفون فى قاعها المظلم، إلا لكى تنذرنى بما سيفعله معى جرسون اليوم. وإننى لأتساءل الآن، ترى كم عاما سوف يمضي، قبل أن يعود مشهد اليوم إلى ذاكرتى

وأجد أن السنين قد منحتنى لسانا فصيحا أتكلم به وأستخدمه فى الدفاع عن حقي، ومنحتنى يدا قوية أصفع بها وجه هذا الجرسون الذى أهاننى وسط حشد هائل من زبائن المقهى.

الأيام الثلاثة

كانت السيارة الصغيرة البيضاء، تنساب عبر الطريق الزراعى فى زوبعة خفيفة من الغبار، ومن حولهـا كانـت الحقول التى امتزجت فيها صفرة السنابل بخضـرة البقـول والبرسيم وانبثقت فى جهات متفرقة وبعيدة منها إعداد قليلـة من أشجار التوت. والأثل والسرو. كانت هذه الحقول تمتـد فسيحة عريضة لا يحدها شيء سوى الأفق البعيد الذى بـدا الآن، ملوناً، متوهجاً، نابضاً تتبصر عنـده غـلالات مـن السحب الرمادية الخفيفة.

وشمس الصباح تطل، ذهبية مشرقة، كبرتقالة الهيـة كبيرة من برتقال الجنة. بل ثمة مهرجان قائم هناك فى ذلـك الشريط الذى تنحنى عنده السماء لتعانق مع بداية هذا الصباح وجه الأرض، الأخضر المبلل بقطرات الندى.

والصولة الآن فى هذا المكان، لنسيم الصباح وحده، فهو الذى يسرى بأنفاسه بين الأغصان الخضراء، ويعبث فى نزق طفولى بأوراق الأشجار التى تنتصب كالحراس وسـط الحقول ويمرق فى خفة بين سنابل الحنطـة التـى اشـتعلت رؤوسها بلون الذهب متسللاً – كعاشق يسعى للقاء حبيبته فى

الخفاء – حتى يصل السيارة البيضاء الصغيرة فيـدور مـن حولها ويلاف بها فى خفيف لذيذ هامس موشوش كأنمـا هـو يتردد إليها بلغة رقيقة مهذبة ناعمة. إلا أنها مع ذلـك لغـة سرية خفية لا يفهمها الإنسان.

كانت السيارة مليئة بالركاب، كلهم شـبان وشـابات وكلهم من دول عربية مختلفة فالسيارة تابعة لمركز تـدريب دولى، ستقبل فى أول كل عام دراسى وفوداً من قبل جميـع الدول الغنية للتدريب على تنمية المجتمعات. وأغلب هـؤلاء المبعوثين موظفون فى بلدانهم، منهم الموظف الكبير الـذى قطع شوطاً طويلاً فى الوظيفة. بل على وجه الدقـة قطـع شوطاً فى الصعود عبر سلم الوظيفـة. ومـنهم المـتحمس الصغير الذى يقف على أول درجات السلم، إلا أنهـم هنـا يتساوون. يأخذون نفس الدروس. ويتقاضون نفس المكافـأة. ويتذوقون نفس نكهة الغبار التى تمتد على طول الطريق من مقر المركز بإحدى القرى الكبيرة إلى قرى الريف المصرى الصغيرة التى يتلقون فيها جزءاً من تدريبهم العملي.

والسيارة الآن فى طريقها من المركز ناقلة فريقاً من المبعوثين إلى إحدى قرى التدريب. وبرغم أن عـدد أفـراد

الفريق خمسة فقط. وسيارتهم هى الأخرى حمولتها خمسـة. إلا أنه يتزاحم بها الآن سبعة ركاب. ذلك أن ثمـة آنسـتين موفدتين من القاهرة لقضاء ثلاثة أيام تـدريب مـع فريـق المبعوثين بإحدى القرى التى يعمل بها المركز.

فقد اعتـاد المركـز أن يستضـيف مـن القـاهرة الأخصائيين المستحدثين فى الخدمة الاجتماعية فـى دورات تدريبية قصيرة مدتها ثلاثة أيام. ولكى نتحرى الدقـة أكثـر نقول أخصائيات اجتماعيات، فكل الـذين يـأتون للتـدريب بالمركز تقريباً من البنات هـن فـى الأغلـب، صـغيرات، وجميلات وحديثات التخرج، إذ ما زال جو الكليـة يعربـد مرحاً منطلقاً سعيداً فى نظرات عيونهم، فهن ما زلن يقفـن على الشاطئ لم ينغمسن بعد فى تيار الحياة. ولم يستشـعرن بطعمه المالح فى حلوقهن. أو حتى على أطراف السـنتهن. ولم يعرفن بعد الصراع مع الأمواج والـدوامات ومواجهـة الصخور. تلك الأشياء التى لا شك فى أنهن سـيلتقين بهـا وسيعرفنها جيداً فى تجربتهن القادمة.. والتى لا شك ستخفف كثيراً من حدة الألق فى أعينهن. وكان المركز يستقبل هؤلاء المتدربات بصدر رحب ولكن الذين يستقبلوهن بصدر أرحب

هم شباب المبعوثين العرب الذين يقضـون مـدة دراسـتهم الطويلة بالمركز. وكان طلاب المركـز يعتبـرون هـؤلاء الأخصائيات ضيوفاً يرحبون بهن على عادة العرب القـدماء فى الترحيب بضيوفهم. حتى عند قرى التدريب لحظة تحين ساعة تجميع حساب الغذاء. وتحاول إحدى الأخصـائيات أن تدفع نصيبها فى الحساب. لحظتها تمتد أكثر من عين. وأكثر من يد. وأكثر من لسان كلها تستنكر وتمنع الأخصائية من أن تدفع ولا مليماً فى الحساب

ويحتجون أيضاً على محاولتها اختراق تلك القاعـدة العتيقة التى لا أحد يدرى من أى ركـن مهمـل منـزوى، استخرجوها. ونفضوها من التراب العـالق بهـا. وأخـذوا يلوحون بها أمام البنات القاهريات وهى أن ضـيف العـرب ثلاثة أيام.

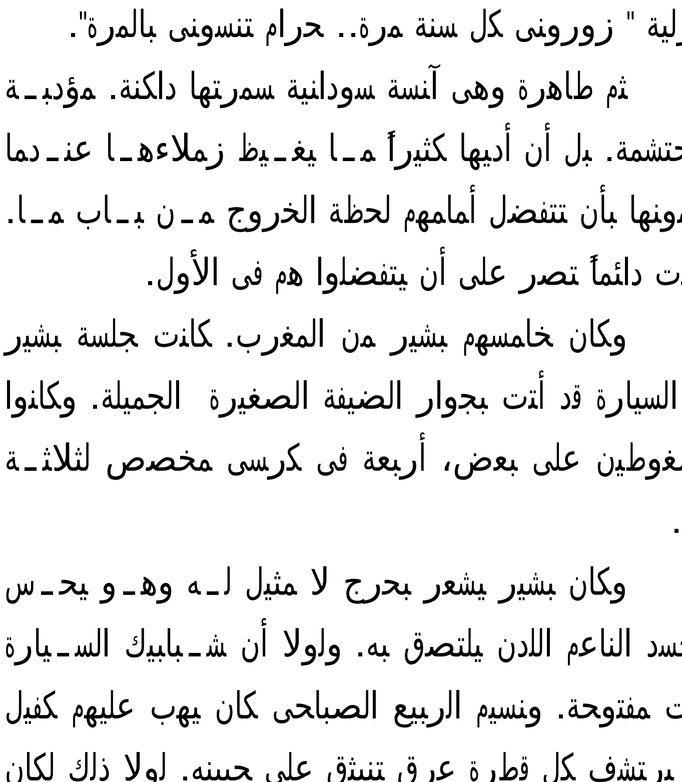
ولم تكن المبعوثتان، اللتان رافقتـا الفريـق اليـوم، كلتاهما جميلتين. فإحداهما الآنسة سعاد- كانـت مهرولـة. وسمراء ومن ذلك النوع من النساء الذى لا ينطبـق عليـه سوى كلمة " سيدة" إلا أنك عندما تكتشف أنها ليسـت سـيدة

تخرج من أن تناديها يا آنسة لذلك فقد اختار الجماعـة حـلاً وسطاً كانوا ينادونها به فيما بعد وهو " الأخت سعاد".

أما الثانية فقد كانت السبعة عشر ربيعاً ترتسم علـى سنتيمتر من جسمها المتناسق الرشيق. كانت صغيرة ورقيقة، وحلوة. كل شئ فيها رقيق. قوامها، خصرها، عنقها، الأسلت الناعم، ابتسامتها التى تسفر عن أسنان بديعـة، منضـودة، ملامح وجهها هى الأخرى رقيقة. بل تشعر بهذه الرقة حتى فى النظرات المنبعثة من عينيها العسليتين. وأيضاً الرقة فى كلماتها وفى حركاتها.

وعندما تنظر إليها هكذا، على بعضها، نظرة شـاملة تشعر بأن فيها شموخاً واعتزازاً، ولكنه ليس مغالياً فيه. بـل لم يخل هو الآخر من نفس الرقة والعذوبة.

أما عن الفريق فقد كان يضم ثلاثة رجال وامرأتان، هناك هالة من الكويت ورغم أنها صغيرة السن والحجـم إلا أنها أرملة وحديثها يدور غالباً عن ابنتها التى تركتهـا فـى الكويت، وصالح اليمنى كان فى الثلاثين من عمره رغم أنك عندما تنظر إلى حجمه لا تعطيه سوى ثمانية عشـر عامـاً. ورغم أن الصادق الليبى هو الآخر له مشاكله فى بلاده ولـه



زوجته التى يمض على تزوجه منها سوى شهرين وأرسـلوه بعدها مبعوثاً إلى هنا، رغم هذا إنه لا يحكى طويلاً عن تلك الأيام، أنه هنا إذا لم يكن يقرأ لجريدة فهـو يغنـى أغنيتـه الأزلية " زورونى كل سنة مرة.. حرام تنسونى بالمرة".

ثم طاهرة وهى آنسة سودانية سمرتها داكنة. مؤدبـة ومحتشمة. بل أن أديها كثيراً مـا يغـيظ زملاءهـا عنـدما يقدمونها بأن تتفضل أمامهم لحظة الخروج مـن بـاب مـا. فكانت دائماً تصر على أن يتفضلوا هم فى الأول.

وكان خامسهم بشير من المغرب. كانت جلسة بشير فى السيارة قد أتت بجوار الضيفة الصغيرة الجميلة. وكانوا مضغوطين على بعض، أربعة فى كرسى مخصص لثلاثـة فقط.

وكان بشير يشعر بحرج لا مثيل لـه وهـو يحـس بالجسد الناعم اللدن يلتصق به. ولولا أن شـبابيك السـيارة كانت مفتوحة. ونسيم الربيع الصباحى كان يهب عليهم كفيل بأن يرتشف كل قطرة عرق تنبثق على جبينه. لولا ذلك لكان بشير الآن يعوم فى بحر من عرقه، ذلك لأنه إنسان خجول، خصوصاً أمام النساء، فحتى البيئة التى نشأ بها لها عاداتهـا

وتقاليدها التى تقيم أسواراً عالية بين الرجال والنساء. وبشير هذا الطويل، المنكوش الشعر. النحيـف الوجـه المقـرون الحاجبين. الذى تعلو أسنانه صـفرة رغـم أنـه لا يشـرب السجاير والذى يبلغ الثالثة والعشرين من عمره، بشير هـذا ليس من أبناء المدن، لكنه من قرية صـغيرة مـن أعمـاق الريف المغربي. ولبشير مشاكله التى كثيراً ما كان يسـردها أمام زملائه ومشاكل بشير عينات من كل الأنواع.

هناك التى ركبت معه الطائرة حينما سافر من أرض الوطن. ورغم أنه لم يضعها فى حقيبته أو فـى جيبـه ولـم يأخذها تحت إبطه. إلا أنه أحس بها معه، بل شعر بها تزاحم كرسيه داخل الطائرة، وهناك مشاكل أخرى ظن أنه تركهـا فى بلادة قبل أن يهم بالسفر. إلا أنه فوجئ بهـا قـد سـبقته وبمجرد أن وضع أقدامه فى أرض مصر حتى وجدها فـى استقباله، تصافحه بحرارة وتأخذه بالأحضـان. أمـا النـوع الثالث فهى مشاكل لم تسبقه ولم تأت معه. ولكـن بعـد أن وصل بمدة وجدها قد لحقت به. لأحد يعلم أن كانت قد ركبت فى طريقها إليه البر أو البحر. ولكن المهم أنه فوجئ بها ذات

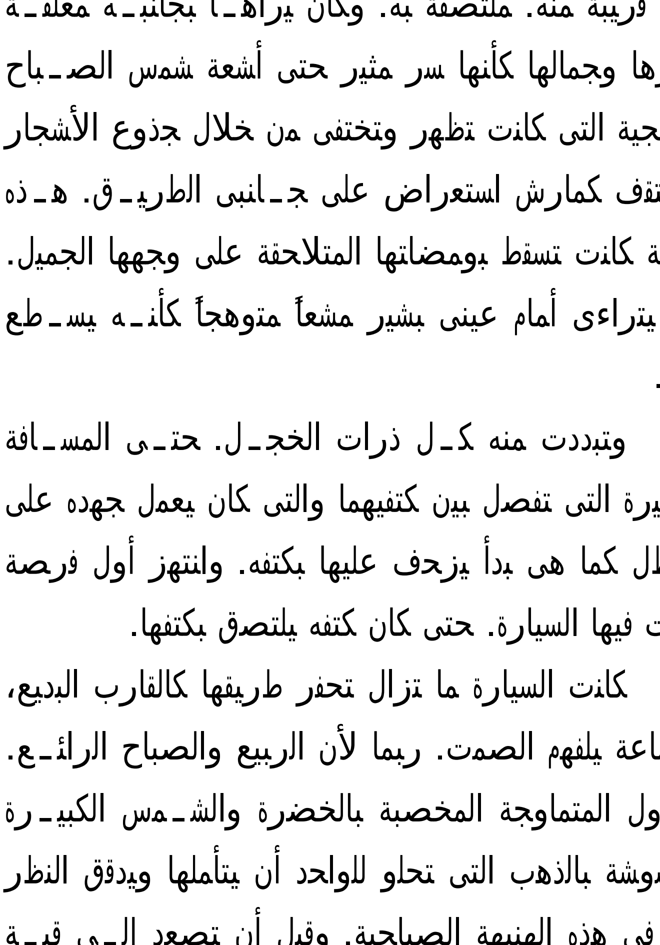
ليلة ورغم الأبواب المقفلة قد عرفت مكانة وتسللت إليه على رؤوس الأصابع. ولم تلبث أن اقتحمت عليه فكره.

هناك مثلا مشكلة أبيه المريض. الذى لا يعرف عنه شيئاً فى وطنه البعيد. ومشكلة الرسائل التى يبعث بهـا دون أن يأتيه الرد. ثم مشكلة خطيبته.. تلك الخطيبة التى سـميت له دون أن يعرف ما هو شكلها أو لونها. حسبما جـرى بـه العرف العتيق فى قريتهم.

كان بشير فى جلسته الملاصقة للضيفة الجميلة، مـا يزال يعانى من ارتباكه وخجله إلا أن النسمات الربيعية التى تكفلت بلعق عرقه بعد مشوار ليس بالقصير، كانت كفيلة بأن تلعق خجله أيضاً. فقد بدأ يفرد نفسه أكثـر، ويتبحـبح فـى الجلسة أكثر فأكثر بعد ما كان متقلصاً منكمشاً فى جلسته.

للحظة شعر كأنه ينسل بفكره من أكـوام المشـاكل المختلفة والأحجام والأوزان وأن يحوم بفكره حول الرفيقـة الحسناء.

حتى نظراته التى يفر بها عبـر شـبابيك السـيارة الصغيرة، ابتدأ يتراجع بها. ويلتفت إلى الداخل يتحسس ابنة " السبعة عشر" بنظراته.



كانت انطباعاته الأولى عنها أنها فتاة جميلة فقط، إلا أنه الآن ابتدأ يشعر بوداعتها وبساطتها وأيضاً يحس بعمـق كونها قريبة منه. ملتصقة به. وكان يراهـا بجانبـه مغلفـة بسحرها وجمالها كأنها سر مثير حتى أشعة شمس الصـباح البنفسجية التى كانت تظهر وتختفى من خلال جذوع الأشجار التى تقف كمارش استعراض على جـانبى الطريـق. هـذه الأشعة كانت تسقط بومضاتها المتلاحقة على وجهها الجميل. فكان يتراءى أمام عينى بشير مشعاً متوهجاً كأنـه يسـطع النور.

وتبددت منه كـل ذرات الخجـل. حتـى المسـافة الصغيرة التى تفصل بين كتفيهما والتى كان يعمل جهده على أن تظل كما هى بدأ يزحف عليها بكتفه. وانتهز أول فرصة اهتزت فيها السيارة. حتى كان كتفه يلتصق بكتفها.

كانت السيارة ما تزال تحفر طريقها كالقارب البديع، والجماعة يلفهم الصمت. ربما لأن الربيع والصباح الرائـع. والحقول المتماوجة المخصبة بالخضرة والشـمس الكبيـرة المرشوشة بالذهب التى تحلو للواحد أن يتأملها ويدقق النظر فيها، فى هذه الهنيهة الصباحية. وقبل أن تصعد إلـى قبـة

السماء. حيث تظل تبعث بمحارز أشعتها القوية التى تغشـى العيون. ربما، لأن كل هذه تشكل شيئاً جميلاً فـى قداسـته وجلالته. شيئاً لا يجدى معه إلا التأمل الصامت العميق.

وبشير ما زال ملتحما فى جلسته بالفتاة. وكان فـى مظهره الخارجى يبدو مؤدبا وقوراً، هادئاً، لا غبار عليـه. ولكن فى داخله لم يكن أبدا مؤدبا أو وقورا أو خاليـا مـن الغبار، كان فى داخله مهرجا، معربدا، بل أن ثمة مهرجـان فى قلبه.. مهرجان صاخب هائل، أنه ليشعر الآن فـى هـذه اللحظة. كأنه ثمة ستارة داخل قلبه ترتفع تدريجيا لتظهر من خلفها أوركسترا بطقم كامل من الموسيقيين. عازف الكمـان والعود والقانون والبيان والناى وضابط الإيقـاع وضـارب الدف.

وكان ثمة صوت على مسحر قلبه ينطلق صائحاً فى صخب ونزق لا حدود له.. " دقـى يـا موسـيقي". وتـدق الموسيقى وتعلو فى قلبه ضجة المهرجان.

كان داخله مليئاً بالصـراعات. موجاتـه الصـغيرة تضطرم فى صخب وضجة وعنف. إلا أنهـا لا تبـدى أى تأثير على سلوكه الخارجي. فهو يجلس ساكنا. صامتاً، لسانه

لا يريد أن يتحرك. وفمه مطبق كأنه حانوت تأجر محجـوز عليه. وضعت عليه أنيابه إشارة (أكس) كبيـرة.. خطيـرة بالشمع الأحمر.

وبدأ كأنه يحاول أن يزيح الإكس الأحمر ويكلمها، إن مئات العبارات مهيأة منتقاة من أفخر الأنواع. جاهزة أيضاً.. كلها لا تريد أن تعبر.. كأن أمامها جسراً مكسوراً.

والحقيقة أن أكبر قدر من اللوم يقـع علـى خبيـر التدريب بالقرية، الذى نسى أن يقوم بواجب التعريـف بـين الآنستين والفريق. إذ لو كان قد حدث لكانت مهمة بشير الآن أسهل بكثير.. ما علينا المهم أن بشير اقتـنص أول نسـمة شجاعة عبرت به.. تثبت بها. بأسنانه وأظافره.. واسـتطاع أن يعبر بأول شحناته عندما مال عليها وقال بصوت خـرج محشرجاً. كصوت مذياع. ما زلت إبرته فى حاجة إلى تعديل لتنضبط تماما على المحطة.

أهلا.. شرفتونا.. وآش الحوال؟...

هذه العبارة عندما لفظ بها. شـعر بالسـخط علـى نفسه... شعر كأن ما قاله سخيف ومضحك ... من بين كـل العبارات الجميلة الأنيقة التى صففها على شطآن قلبه... لـم

يجد سوى هذه العبارة يستهل بها عملية التصدير.. ما أسخفه من بليد لا يعرف كيف يتكلم مع البنات الرقيقات.

ولكن سرعان ما تبدل شعوره بالسخافة عدما وجدها تكمله... وقد وقعت كلامها بابتسامة تقطر عسلاً.

ا يسلمك ده أنتم اللى مشـرفين بلـدنا.. حضـرة الأستاذ من أى بلد عربي..

كان واضحا أنها هى الأخرى مشحونة بالرغبة فـى الحديث إليه.

وصاح هو والفرحة تتألق فى عينيـه.. – أنـا مـن المغرب أشتغل هناك مرشد اجتماعي. وشعر لحظتها كـأن كلماتها قد فتحت أمامه البوابة الكبيرة.. ليعبر إليها...

وعندما وصلت بهم السيارة الصغيرة البيضاء إلـى قرية العمل الميداني.. كان الحديث بين بشير ونـوال التـى صار يعرف اسمها قد وصل إلى نتائج باهرة. فقد اسـتطاع أن يقنعها بأنه ساعة التجوال عبر القرية لن تجد أحسن منـه مرشداً لها. فهو أخبر خبيـر بأسـرار القريـة وبخباياهـا ودروبها. ومسالكها الخفية المجهولة. رغـم أن ا يعلـم أن القرية لا تختلف عن أى قرية مصرية أخرى فى أنها بريئـة

براءة الذئب من دم ابن يعقوب من حكاية الأسرار والخبايـا والطرق الخفية.

وهكذا فإنهم بعد أن جلسوا جميعاً فى بيت الفريـق.. وقرءوا الصحف وتناولوا الشاي، وتشابكوا – كما هى العادة – مع بواب البيت حول الغبار الذى ينتشر فـوق المنضـدة والكراسى. بعد ذلك تفرقوا متوزعين عبر طرقات القريـة.. وكان بشير رفيقاً لنوال فى تجواله..

وكما هى عادة القرية بالريف المصري. مجموعـة قليلة من المساكن الداكنة الصغيرة. ومسافات شاسـعة مـن الأرض الخضراء المزروعة حولها. لذلك سرعان ما انتهيـا من الدوران عبر شـوارع القريـة.. وسـار سـويا عبـر الحقول...

وفى حديثهما خلال السير لم يكن أبدا محور الكـلام عن طريقة مكافحة دودة القطن أو تغيير اتجاهات الفلاحـين نحو تحديد النسل، أو تحسين البيت الريفى، أو أهميـة فـتح فصول لمكافحة الأمية.. أو غيرها من تلك الأحاديـث التـى تدخل فى اختصاص الأخصائى فى تنمية المجتمع مثلهمـا.. أبداً.. فقد كان هو يستغرقه حديث طويل عن المغرب وعـن

عمله وحياته هناك وربما انعطف إلى سرد بعض من مشاكله ... وهى تتحدث عن كليتها وعن تخرجها هذا العام.. وعـن وظيفة الإخصائية الاجتماعية التى عينت حديثاً عليها.

وأحيانا كان يستغرقها صمت.. ومن حولهما كانـت الشمس تتسلق بهدوئها المعتاد جدار السماء.. وتوزع أشعتها الربيعية الدافئة على كل شيء فى كرم وسخاء.

وصوت فيه رنة شجن لساقيه تدور يأتيهما من مكان قريب... وبقربهما قناة مائية تنساب وقد تمت وتشابكت على جانبيها طوابير من الأعشاب البرية الخضراء.. وغناء فلاح يحرث الأرض يصلهما من بعيد ربما كان يغنى من خـلال عرقه ومتاعبه" طلعت يا محلى نورها.. شمس الشموسي".

ولأول مرة يشعر بشير بأن القرية مليئـة بالجمـال. كان من قبل عندما يأتى لقضاء فترة العمل الميدانى بالقريـة يستغرق كل الوقت فى التجوال عبر طرقات القرية سـاعيا حينا لردم البرك. أو لحمله نظافة فى شوارع وبيوت القريـة فكان لا يرى القرية إلا مـن خـلال المسـتنقعات المليئـة بالبعوض وأكوام السباخ القائمـة أمـام البيـوت. والتـراب

والذباب على وجوه الأطفال.. وروث البهائم فـى طرقـات القرية.

كان لا يرى القرية إلا من هذا الجانب، لدرجة أنـه فى أحيان كثيرة كان يشعر بالضيف والانقباض من تدريبـه بالقرية. واليوم ولأول مرة يشعر بقلبه يتفتح مستمتعاً بخضرة الحقول. وبغناء الفلاحين.. وبصوت الساقية التـى تـدور... وأسراب البط التى تعوم أو تقف على شاطئ الترعة تـنفض عن ريشها حبيبات الماء... ويثير فى نفسه مئات الأحاسيس عن ذلك الثور المعصب العينين الذى ... يدور ... ويدور..

وعندما كان يمران مـن تحـت الأشـجار المليئـة بأعشاش طيور أبو قردان كان يطيـل النظـر إلـى هـذه الأعشاش ... ثم يجد نفسه لا يقدر أن يغالب رغبته فـى أن يحتوى نوال بنظرة طويلة. عميقة. وتبادله هى نفس النظرة.. ربما كان لسانه حالهما يقول:

كما هو شيء جميل.. أن يكون للإنسـان أيضـاً.. عش؟

حتى عندما كان يرفع رأسـه إلـى السـماء يراهـا صافية، كمرآة زرقاء مصقولة.. يكاد يرى صورته مع نوال معكوسة على صفحاتها.

بل ويحس كأنه يرى الآن عربات الشمس التى كثيرا ما حكى عنها الفراعنة فى تاريخهم، وهـى تجـر قـرص الشمس على صفحة السماء.. فى مهرجان مهيب حافل كبير.

وتمنى لو أن هذا المشوار فى التجول عبـر الأرض الخضراء... لا ينتهي.

ولكنه – ويا للالم – انتهى ... بل كل اليوم فـوجئ به بشير ينقض كأنه دقيقة واحدة.. وقبل الغروب بقليل عندما ابتدأت الظلال تنتشر فى كل مكان..

ونسمات الربيع الأصيلى تهب تلفح الوجوه، وتبعثـر الشعور المصفوفة الممشطة بعناية على الرؤوس، وتصـب وشوشتها اللذيذة فى الآذان.

والشمس متوهجة جميلة تنغمس هناك فـى الأفـق. والغسق يحاصر المكان.

عندها. ركبوا سيارتهم الصغيرة البيضاء وعادوا من نفس الطريق.

في اليوم التالي. كان أعضاء الفريق يتبادلون النظرات، نظرات مندهشة حائرة وهم يرون بشير قد أتى للعمل الميدانى حالقا شعر وجهه وهو الذى اعتادوا أن يرونه دائما مهملا فى هذه الناحية.. ولأول مرة يأتيهم مرتديا بدلته الجديدة التى لا يرتديها إلا عندما ينزل القاهرة. ومن صدره يتلألأ سيفا فضياً رشقه فى ربطة العنق المزخرفة الأنيقة التى لم يره أحد يرتديها إلا اليوم.

ولأول مرة يلاحظون أن شعر رأس بشير، الذى عرفوه دائما مبعثرا منكوشا يرونه اليوم مصفوفاً ممشوطاً لامعاً، مدهوناً بالزيت.

ولم يشك أعضاء الفريق لحظة، فى أن هوسا ما أصاب زميلهم بشير أو أن عفريتا ركبته، وليس عفريت عاقل متزن، بل حتى العفريت الذى ركبه عفريت نزق مجنون أملى عليه أن يتزوق ويتأنق ويدهن شعره بالزيت، ثم يأتى ليمرغ أناقته هذه فى غبار وتراب ووحل القرية.

ليس هذا فقط.

بل إنهم لاحظوا.. أن شجيرات الورد التى أمام بيت الفريق تتناقص ورودها بشكل غريب ولم يعرفوا السبب إلا

عندما رأوا بشير يختلى بإحدى أركان البيت، وقـد تنـاثرت ورود كثيرة فى الركن الذى يقف عنده ممزقـة إلـى قطـع صغيرة وضبطوا بيده وردة أخيرة يستل أطرافها بأصـبعيه كالذى ينتزع الريش من أجنحة عصفور... ويهمس.

- بتحبينى ... ما بتحبنيش.

وأمام النظرات التى كان يشكه بها زملاؤه أعضـاء الفريق... لم يملك إلا أن يعترف.

إذ انتهز فرصة ذهاب نوال مع سعاد، فـى مشـوار صغير لملء استمارات من بعض نساء القرية.. وسرد أمام " الزملاء " كل خبايا قلبه.

وأنهى اعترافه... بأن أخرج من جيبه ورقه مطوية فتحها، وابتداء يقرأ عليهم قصيدة شعرية كان قد بدأ ينظمهـا فى غمرة مهرجان الحب فى قلبه، وسهر عليها البارحة حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل... وأتم كتابتها..

وكانت القصيدة مليئة بالأقمار والـدرر والجـواهر والأحجار الكريمة وزهور اللوتس والأقحوان التى اسـتعملها فى وصف نوال. وأخذ الفريق المسألة كأنهـا مشـكلة مـن مشاكل العمل الميدانى، تحتاج إلى جلسة حول المنضدة التى

يستعملونها للأكل ساعة الأكل، وللقراءة والكتابة فى ساعة أخرى وللاجتماعات عندما يكون هناك اجتماعات، وأخذوا المسألة كأنها مشكلة تحتاج أيضاً إلى تداول فى الآراء بحثاً عن الأسباب والأبعاد الخفية منها وغير الخفية.

وكان أول من مسك بخيط الحديث صالح اليمنى، ربما لأنه كان الأكبر سنا، والكبار دائما يجب أن يكونوا فى المقدمة وبعدهم يأتى دور الصغار، هكذا فى عرف صالح على الأقل. وقال صالح أنه يدين أول ما يدين، الربيع. فالربيع هو المسؤول الأول والأخير وما بينهما عن هذه المشكلة التى يجتمعون من أجلها الآن.

ثم اندفع قائلاً.

- تزوجها يا أخي... تزوجها..

وكانت طاهرة السودانية، من رأى صالح أنه ليس ثمة حل سوى الزواج..

أما هالة فقد أشارت عليه – كامرأة مجربة ومارست الحياة – بأن يتأكد من عواطفها أولاً.. وليكن ذلك اليوم، لأن نوال ستسافر غداً.. فإذا وجد أنه تبادله العاطفة يتفقان على الزواج.

ورغم أن الصادق الليبى له رأى لم يتورع عـن أن يرمى به وسط الاجتماع وهو أن الحب ليس سوى مـرض يصيب الإنسان لثلاثة أيام تماما كـالإنفلونزا أو الصـداع أو الحمى الخفيفة.. رغم هذا فهو لم يتردد فى أن يتقدم بشـهامة ليبية ويبدى استعداده للمساهمة فى تمويل مشروع الزواج... إذا ما احتاج إلى تمويل.

وانتهى الاجتماع بإعلان من الصادق أنـه سـيغير أسطوانة " زرونى كل سنة مرة" التـى تـدور علـى فمـه بأسطوانة تلازم المقام ... ثم دق على المنضدة وغنى أغنية ليبية.

رمش العين فى قلبى رماني..

حتى بواب بيت الفريق العجـوز ... صـار ينظـر لبشير نظرات ذات معنى، ولم يلبث أن أفصـح عـن سـر نظراته عندما قال وهو يضع كوب الشاى أمام بشير.

إنتو الاثنين، لايقين لبعض وا .

وعندما حدق فيه بشير متقلصا بملامحه كأن لم يفهم ماذا يريد أن يقول؟

لم يرد العجوز على أن بسط تجعدات وجهـه فـى ابتسامة عجوزية طيبة وهو يتمتم.

أى وا ..

ولم يترك بشير الوقت يضيع، فقد أقتنص أول فرصة أتيحت له لمرافقة نوال فى الذهاب إلـى الحقـل.. ووصـلا هناك...

كانت رائحة الأرض تفوح وتتصاعد من حولهما، فى القرية فقط بعكس المدينة، فى جو الغيط والحقـل.. يشـعر الإنسان بمعنى الأرض بأن لها لون، ولها رائحة ولها طعـم ونكهة لذيذة يستشعرها على لسانه..

كان الجو مشبعاً بأنفاس أبريل.. ونسمات الأصـيل تهب عليهما طرية ناعمة محملة بروائح كل مـا فـى هـذه الحقول من براعم تفتحت مع الربيع... فكانت تداعب شـعر نوال.. وتبعث فى نفس بشير نشوة لذيذة عندما تلفح وجهه..

وما زالا يسيران..

وأعراض الارتباك بدأت تظهر بشكل واضح علـى وجه بشير.. وعلى يده وحركاته ورغم أنه كان مطمئنا إلـى أن النتيجة ستكون على ما يرام.. فنوال عنـدما يحـدث أن

تنادى أحد أفراد الفريق كانت تنادى اسمه مسبقاً بيا أستاذ... إلا هو فهى تناديه باسمه المجرد.

ورغم ذلك فهو ما يزال مرتبكا... مـاذا يمكـن أن يقول لها الآن؟

هل يصيح بها – قفى هنا !

ثم يملأ رئتيه بالهواء الطلق ويقول لها.

لدى كلام خطير أريد أن أقوله لك.. وعنـدما تقـف يصب فى أذنيها ما يريد أن يقوله لها من كلام.

أنا أحبك ... أنا أعبدك... أنا أموت فى نظرة مـن عيونك الساحرة. وإلا ماذا..؟

ترى كيف يفعل المحبين أمثاله عندما يواجهون هـذه اللحظة التى لا بد لك من يحب أن يمر بهـا. لمـاذا.. هـذا الطوفان البشرى المتعاقب جيل بعد جيل. لماذا الـم يضـع قاعدة لهذه العملية التى تتكرر فى حياة كل إنسان.

لماذا يكون مقدراً على كل واحد أن يعانى ويتعـذب وترتجف أطرافه أصابعه.. ويبتلع ريقه خمسين مـرة فـى الثانية.. مفكراً كيف يتصرف مع أن كذا بليون من قبله قـد مروا بهذه التجربة. وكذا بليون من بعده سوف يمرون بها...

لقد وضعوا قواعد لكل شـئ فـى الحيـاة، التافـه والمهم.. ثم أغفلوا هذا الجانب... أنها غلطة على مسـتوى الأجيال البشرية.. لا تغتفر.

واكتشف أن أقصى ما يمكن أن يعمله الآن... هو أن يضع يده فى يدها.. وهكذا فقد اقترب بأصابعه متحسساً يدها الصغيرة الناعمة... ثم ضم عليها أصابعه، ولم تتكلم هي... لم تمانع أو تستل يدها، بل تركت يدها طيعـة مرنـة بـين أصابعه كحمامة أليفة وديعة، وأكثر من ذلك عنـدما تجـرأ وضغط على يدها ضغطة خفيفة، بادلته إياهـا فـى نفـس اللحظة.

وعندما نظر إليها من خلف أهدابه.. وجد وجههـا مرشوشاً بحمرة قانية تماما كأنه وردة حمـراء.. ونظراتهـا تائهة.. وأنفاسها تتردد مسرعة مبهورة... وكاد يصيح بقلب فرحان ريان مليان بالسرور والحبور والسعادة..

البنت بتحبني.

وأحس كأن كل خلية فى بدنه قد أثقلتها السعادة.. إلى الحد الذى لم يستطع معه الاسـتمرار فـى السـير. فوقـف ووقفت..

وهام فى تقاطيع وجهها الدقيق الملتهب بدماء الخجل كأنه شعلة مقدسة.

واحتوت هى ملامح وجهه الوسيم النحيـف بنظـرة معبرة من العينين العسليتين.

وكانت الشمس التى تقف على حافة السـماء كأنهـا عين ا والأفق الذى يبدو مخصباً شفافاً، تكـاد تلـوح مـن خلاله حدائق ومدائن وقصور ودنيا أخرى جميلة مسـحورة، والأشجار التى تتصاعد وشوشتها عندما يلامسـها النسـيم.. كأنها همسات ألف عاشق يملئون المكان.

والحقل الذى يتماوج ويميل فى تيه، كأنـه فرحـان بروائه وخضرته وربيعه...

والأرض البكر التى تفوح كأنها رغيف كبير طازج أخرج لتوه من قلب الفرن، تملأ رائحتها المكان والزمان..

وكل مظاهر الطبيعة الساحرة هذه، كان واضحاً إنما هى إلا إطار... لهما.. له ولها.. فى وقفتهما تلك..

وألتقط بشير أنفاسه الهاربة وهو يقول لهـا بلهجتـه المغربية الممزوجة بكلمات مصرية تعلمها بعد مجيئـه إلـى مصر أنه يحبها... وأنها أول حب فى حياته!

وزادت كمية الـدماء الورديـة المتصـاعدة إلـى وجهها... وأسبلت جفونها سبلة خفيفة.. وبكل حاسة فيه ... بكل ذرة فى كيانها.. بكل لهفة العـالم التـى تجمعـت فـى عينيه.. استعد لالتقاط ما تهمس بـه شـفتيها. وتمـت فـى خفوت...

وأنا كمان... يا بشير.

لحظتها لم يدر من أين واتته الشـجاعة.. ولا مـن الهمة هذا الخاطر... فمال عليها وأقتطـف منهـا قبلـة... سريعة... وخاطفة ... وقصـيرة. إلا أنهـا كانـت كلقمـة مغموسة بكل ما فى العالم من عسل نقى مصفى.

فى اليوم الثالث... كان بشير يعانى من حيرته، فهـا هو قد تأكد من عواطفها. ولكن هـل هـو قـادر علـى أن يتزوجها... إن هناك فى المغرب مجتمعا لـن يرضـى... وأسرة ستغضب وفتاة لا يعرفها ربطوا مستقبلها بمستقبله.

والوقت يمر...

عقرب الثوانى فى ساعة اليد يجـرى لاهثـاً يلـف ويدور صانعاً الدقائق وعقرب الدقائق يلق ليصنع السـاعات

... وعقرب الساعات يلف يستعجل آخر النهار الذى ستذهب فيه نوال..

وعقله هو الآخر يلف.. لكنه كطاحونة الهـواء لـم يصنع شيئاً.

حتى انتهت فترة العمل الميـدانى بالقريـة ... فـى منتصف النهار.. وعادوا إلى المركز، كان بشير مـا يـزال مبعثرا لم يستقر. كان السؤال.. هل يتزوجها.. يخبط علـى جدران ذهنه، وفي مواجهته يقف ذلك الطيف لإنسـانة لـم يرها.. لم يعرفها.. قالوا إنها خطيبتـه... ربطـوا بخيـوط وهمية مصيرها بمصيره...

حتى فى اللحظة التى وقفت فيها سيارة صفراء كالحة كسيارات الجيش. لتقل نوال وزميلاتها بعد أن انتهـت أيـام تدريبهن بالقرى التى يعمل بها المركز.

كان السؤال حتى تلك اللحظة.. ما يزال يـرن فـى داخله، له صدى غائر عميق، صدى كبير طويل ممـدود لا ينتهى، كصدى أجراس كنيسة تدق فى واد مهجور.

كان يقف وسط المركز الرحب الواسـع، منقبضـاً مبعثراً، حزيناً، حتى عينيه اللتين تشخصان إليها وهى تمزق

من بعيد وفى يدها حقيبتها لتركيب السيارة. هاتـان العينـان تبدوان منطفئتان كأن لحظة الفراق صعقتهما، جعلتهما أشـبه بعيون من زجاج.

كان يرقبها من بعيد..

لم يجد فى نفسه حتى القدرة بحيـث يـذهب إليهـا ويودعها...

إلا أنه فى آخر لحظة أفاق إلى نفسه وانطلق يجرى ليقف أمام بوابة المركز التى ستخرج منها السـيارة، ربمـا على الأقل يستطيع أن يتزود منها بنظـرة أخيـرة.. نظـرة وداع.

وفى اللحظة التى تمهلت فيها السيارة وهى تمر مـن أمامه مجتازة البوابة..

وفى هذه اللحظة ... رأى نوال تطـل مـن شـباك السيارة.. وتودعه بهزة من يدها.. واستطاع أن يرى دموعا تلمع فى عينيها..

ولم يعرف ماذا يعمل..

كل الذى استطاع أن يقوله وهو يرى السيارة تنطلق، أن صاح بصوت واهن ملهوف محروق مشروخ كأنما يراها يبتلعها العدم...

نوال

ثم أومأ بيده... وتابع بنظرات حزينة منكسرة السيارة حتى ذابت فى الطريق..

وظل واقفا..

وفى وقته تلك كأنه أشبه بعمود التلفون المثبت قريبا منه.. للحظة عندما تنبه إلى نفسه.. شعر بأنه وحيد فى هـذا العالم.. وبأنه تائه مسكين..

وفى ذهنه ما زال يتـردد صـدى السـؤال.. هـل يتزوجها.

وهناك فقط تذكر...

بأنها سوف لن تعود، وبأنه لن يلتقى بها ثانية، سوف يبتلعها الريف المصري.. فى دمنهور أو بنـى سـويف أو الأقصر حيث سيحدد لها مكان عملها.. وهو سيعود هناك إلى وطنه البعيد.. الذى يشرف على محيط كبير واسع عميق...

وسيعود إلى وظيفته، وطيف زوجته التى لا يعرفها.

ستأخذ هى مدارها..

وسيمضى هو كأى درة فى دوامة الحياة لمداره المرسوم له.

هذه التى كانت اللحظات بعض من حياته.. من عمره.. من نبضات قلبه... سوف لن يلتقى بها ثانية.

وشعر لحظتها كأن مئات الأيدى المجهولة، أيد غليظة قاسية.. تمتد لتمزقه من الداخل تعصر أشياء فى أعماقه.

وشعر كأن أليافا تتصاعد من ريقه.. هل صحيح لن يلتقى بنوال بعد اليوم هذا غير صحيح، حتى وإن كان صحيحا فإنه لن يصدق، أن كل شيء فيه أضعف من أن يحتمل تصديق هذه المسألة وأحس بنفسه كائن ضعيف وصغير وهش. وأحس أنه لا يساوى شيئاً يملأ عليه وجداناته.. ربما معها كان يساوى. كان له معنى... لكنه بدونها لا شيء.. كورقة الجنيه المقصوصة نصفين.. هو هذا النصف المقصوص. الذى بلا نصفه الآخر لا يساوى شيئاً فى السوق.

والحزن داخل قلبه له هدير يكاد يسمعه بأذنيه.

وأحس بكل ما يحويه هيكله من أشجان تثور.

وانتزع نفسه من وقفته المزروعة تلك.. وفى خطوات سريعة منفعة مرتبكة.. اجتاز بوابة المركز الأمامية. وبنفس الخطوات السريعة المرتبكة.. سار عابرا ساحته وأروقته. وبنفس الخطوات صعد السلم المؤدى إلى قسم حجرات النوم.. حتى عندما تعثر فى بعض زملائه وأساتذته على السلم، لم يكلم أى أحد منهم... ربما لم يلاحظ حتى النظرة المتعجبة، التى شيعوه بها.

واصل خطواته السريعة المنفعلة المرتبكة.

ووصل حجرته..

وبنفس الحالة المنفعلة، فتح الباب، ثم قفله وتقدم بنفس الخطوات السريعة المنفعلة المرتبكة إلى السرير وهو يلهث، كأنه قادم لتوه من مشوار صعب متعب طويل.

ثم ارتمى على السرير.

وارتعشت ملامح وجهه. وتقلصت تقلصا حزينا.. أليماً.. ثم انخرط يبكى.. بصوت مسموع.. بكاء حزينا قاتما.. وطويلا طويلا.

البحر لا ماء فيه

توت ... تووت ... تووووت

السفينة تفك قيودها من رصيف الشـاطئ، وتطلـق نداءاتها.

توت ... تووت.

نداءات تماوج.. تقصر وتطول هـى تحيـة وداع، مناديل وداع تنشرها السفينة فى الفضاء لمدينة نابولى.

النداء الذى تبعثه صفارة السفينة يثيـر حزنـا فـى القلوب، حزناً لا كما نعهد الحزن قاتماً أسود بل هـو حـزن طيب خفيف كالغمام الأبيض، هو ذلك الحزن اللذيـذ الـذى يصاحب لحظات السفر والوداع والتلويح بالمناديل البيضـاء فى الفضاء. السفينة تنطلق.

وطيور البحر كثيرة من ورائها ومن حولها، بيضاء ورمادية. تصوصو بثرثرة وتنشر أجنحتهـا فـى سـعادة، وترافق السفينة فى رحلتها مع المد.

السفينة تكف عن نداءات الوداع.

ونابولى تبتعد. تتلاشى. السفينة تشق البحر تثير من حولها معسكرات من الفقاقيع البيضاء.

ونابولى تتحول هذا الليل إلى نقطـة ضـوء. كـل شواطئ إيطاليا تبدو شريطاً رفيعاً من الضوء، يظـل يهـت حتى ينطفئ تماماً.

ولا شيء غير الليـل وسـواده والبحـر ووشوشـة امواجه. السماء مفروشة تتبعثر فيها نجوم وهلال لونه أصفر والبحر – تحت النجوم – مستلقيا فى دعة مصقولا، وناعما، وطيبا.

والسفينة تنزلق فوق الماء. فى خفة ورشاقة، سـعيدة بالليل والبحر والنجوم، وبحيتان البحر وأسماكه التى لا بـد أنها الآن تداعب قاعها وتصطدم به وتحاول أن تعضه.

السفينة عامرة بالناس المسافرين، هم لا بد فرحـون بالسفر. هم يتناثرون فى المقهى والمقهى نظيف، وكراسـيه مريحة، وأضواؤه ملونة وهادئة وتنعكس فى أراضيه المقهى المصقولة، وفى منافض السجائر الزجاجيـة وفـى أوجـه المناضد، وفى الكئوس المصفوفة بعناية فى الأدراج خلـف بنك الخشب الكبير.

والعجائز يدردشن ويرتشفن القهوة بصـوت عـال، والرجال يلعبـون الـدومينو، وينفثـون دخـان السـجائر،

ويتعارفون على بعضهم البعض بسهولة من أين وإلى وأيـن وما اسمك ويصبحون أصدقاء يعزمون بعضهم على الدخان ويتبادلون كروت العنـاوين ويتضـاربون علـى أكتـافهم، ويقولون للجرسون التركى "تشكر آد رم" وعدة أطفال تناثروا يتقافزون بأحذيتهم الصغيرة على الكراسى الخالية ويتشعلقون بأركاب النساء والرجال.

والركاب، هم كركاب أية سفينة خليط من الأجناس، وهذا الخليط لا بد أن يكون أحد عناصره الألمـان، وكـان هناك عدا الألمان الأتراك الراجعـون إلـى الأسـطانبول، والإريقيون الراجعون إلى بيرية وأثينا، وكـان هـو وحـده عربياً وصحفياً ووحيداً.

وهناك التقينا هى فراشة صغيرة... هو شـاب مـن ذلك النوع الذى أول ما تراه تحس بأن هذا الشاب ستكون له شيخوخة مهيبة، وهى ترتـدى بنطلونـا، البنطلـون أزرق، والقميص نصف كم، وبدلته هو كاملة، البنطلون والجاكيـت وربطة العنق الرمادية، وقميصاً، ملون كأجنحة فرشة، وبـه ورود وحيتان ورأس غزال وخطوط خضر وبنية وبنفسـجية تماماً كأجنحة فراشة، وهو يحمل سحنة سـمراء وعيونهـا

سوداء حبات زيتون ،، ومن يرى سحنته سيعرف على طول أنه عربى، وشعرها أسود، ديل حصان، والحصـان عنيـد وجموح فديله هذا دائما يهتز وينش فى الهواء ويتراقص.

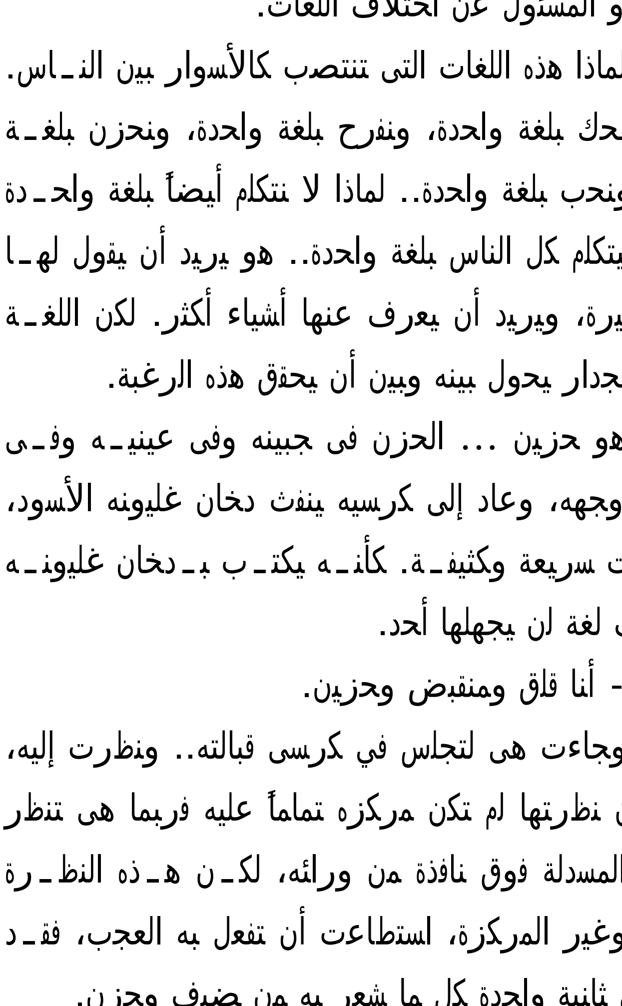
وهو كالسر يسألونه فى السفينة ماذا ستكتب وعمن، وهو يقول سر المهنة، وهى تمشى رشيقة، لا هى لا تمشـى هى فراشة، تطير، وتتقافز ... وهو يجلس.. كرسيه فوتيـل كبير وحيد وبجواره النافذة، والغليون أسود وصغير ودائمـاً فى جانب فمه وعود كبريت مشتعل بين أصبعيه، وهى تنقر. تنقر بأصابعها المقصوصة الأظافر على البيانو فى الصالون وتنقر بكعب حذائها الرفيع على ظهر السفينة، وتنقر بنظرات ورموش عينيها على أرضيات القلوب، وهو يشرب البايـب وينشر من حوله سحباً كثيفة من الدخان. تصنع مـن حولـه ستاراً شفافاً يساهم فى صنع السر ن وهى من اليونان عائدة إلى أثينا بعد أن ساحت وتجولت فى أنحاء أوروبـا، وهـو قصاص، وككل القصاصين العرب، لا بد لكى يعيش ويقص أن يشتغل بالصحافة، وهو كتب كثيراً، وصور بناتاً لم يلتـق بهن افترض فيهن الرشاقة واللطافة والعذوبة، وهو لأول مرة

يكتشف بطلة حقيقية كبطلات قصصه لطيفة ورشيقة وعذبة حقا.

وفى الليلة الأولى نظر إليها من خلف غلالة الدخان التى تحوطه، واكتشفها، وبقى تلك الليلة يرقب اكتشافه ويستمتع به من بعيد، كالذى اكتشف جزيرة مجهولة فى عرض البحر فظل واقفا على شاطئها ليعطى نفسه فرصة يستمتع فيها بلذة الاكتشاف، وقال لنفسه مقررا يوم الغزو.

- فى الغد..

غدا سيكلهما وسيتعرف عليها، الناس فى السفن يتعارفون بسهولة، وسيبادلها كرت الاسم والعنوان، وسيحكى لها عن قصة، ويسعده أن يستمتع منها إلى تفاصيل رحلتها وحياتها وستحكى له لا بد عن بيتها فى أثينا وعن دراستها وسيطول بينهما الحديث حتى يصل إلى "المرأة والرجل وبينهما الحب" وأخذ يدرب نفسه على أن يكون ربانا ماهرا لسفينة الحديث حتى يدير الدفة فى الوقت المناسب للموضوع المناسب، ولكن الغد خيب أمل الفارس، فقد كان يظن أنها تتكلم مثله الإنجليزية. لكن هى لا تتكلم سوى لغة واحدة "اليونانية"، ونفث ساعتها سحباً كثيفة من الدخان ووقف على



سور السفينة يضربه بقبضة يده فى إيقاع منتظم وعنيف كان السور هو المسئول عن اختلاف اللغات.

لماذا هذه اللغات التى تنتصب كالأسوار بين النـاس. نحن نضحك بلغة واحدة، ونفرح بلغة واحدة، ونحزن بلغـة واحدة، ونحب بلغة واحدة.. لماذا لا نتكلم أيضاً بلغة واحـدة لماذا لا يتكلم كل الناس بلغة واحدة.. هو يريد أن يقول لهـا أشياء كثيرة، ويريد أن يعرف عنها أشياء أكثر. لكن اللغـة جدار والجدار يحول بينه وبين أن يحقق هذه الرغبة.

هو حزين ... الحزن فى جبينه وفى عينيـه وفـى ملامحه وجهه، وعاد إلى كرسيه ينفث دخان غليونه الأسود، فى دفعات سريعة وكثيفـة. كأنـه يكتـب بـدخان غليونـه وبحروف لغة لن يجهلها أحد.

- أنا قلق ومنقبض وحزين.

وجاءت هى لتجلس في كرسى قبالته.. ونظرت إليه، ورغم أن نظرتها لم تكن مركزه تماماً عليه فربما هى تنظر للستارة المسدلة فوق نافذة من ورائه، لكـن هـذه النظـرة الواحدة وغير المركزة، استطاعت أن تفعل به العجب، فقـد أنسته فى ثانية واحدة كل ما شعر به من ضيف وحزن.

كنست أحزانه والقت بها إلى البحر...

وعادت نظراتها إليه تتخذ شكلاً مركزاً.. هى تنظـر إليه، هو ينظر إليها. هى إذن مهتمة به.

هى مثله مهتمة. هو يبتسم هى تبتسم. التقينا وربمـا حدث هذا لأن كل من فى السفينة من الكبار.

كلهم رجال كبار إن لم يكونوا كهولا أو شيوخاً فهـم على الأعتاب. وكلهن نساء كبيـرات، زوجـات وأمهـات وعجائز وكان لا بد أن تبحث عن الأقرب إلى سنها ويبحث هو عن الأقرب ربما إلى سنه فقط بل وإلى خيالـه وروحـه وإحساسه البالغ الرهافة.

وعادا يتبادلان النظرات..

وأحس كان هناك ثمة لغة أخرى تتجاوز كل ما فـى العالم من لغات.. هى لغة العيون. يقول لها بعينيه.. أين أنت من زمان يا بطلة أسطورية، عانيت مهمة خلقها، وسـهرت الليل من أجل أن أجعل من ثوبها أجنحة فراشة ومن عينهـا حبتى زيتون. ومن دقات كعب حذائها عزفـا علـى أوتـار قيثارة، وهى تقول بعينها.. وأنت أين؟ يـا فارسـا عربيـاً وسيما، يا حلما داعب جفونى فى الهنيهات الأخيرة من ليـل

الشتاء. وبعينيه يقول. وأنت يا فراشة وثبت إلى هنا من بلاد اليونان. ما قاله أرسطو وأفلاطون من حوار يا بنيـة أثينـا العظيمة – أراه مكتوباً فى عينيك على حبى زيتون. مكتوبـا بلغة أفهمها وأحفظها وأعرفها جيداً.

وفى الصالون كان ثمة بيانو كبير لونه بنى. والبسط فى الصالون تركية وستائر النوافذ خضراء ومفروجة نصف انفراجة. فبان من ورائها البحر ممتدا ومتماوجا وأزرقا وهى تعزف على البيانو بحذق ومهـارة. أصـابعها المقصوصـة الأظافر كانت تتراقص فوق أزرار البيانو.. فتخرج الأنغـام مفروشات.. كعصافير صغيرة تنطلق لها أجنحـة مخضـبة. هى الآن تكلمه بلغة الموسيقى. هى تنقر له علـى البيـانو، كتلك النقرات التى يرسلونها عبـر اللاسـلكى مـن السـفن والموانى والأبراج العالية. نقرات صغيرة وخفيفـة وتحمـل آلاف المعانى. هى الآن كأنهـا تقـول لـه بهـذه الشـفرة الخاصة... أنت لي!!

وهناك فى البعيد كان البحر يتعانق مع السماء !!

هو فى بلاده معروف بثوريته، هو ينقد كل شئ، فهو يريد لمدينته أن تكون مدينة فاضلة، ربما لا مدينته فقـط أو

وطنه فقط... هو يريد كل العالم أن يكون عالما فاضلا ينشد دائماً الفضيلة والكمال وهو الآن. فى هذا الزمان فـى هـذا المكان يشعر بأن أمنيته الخالدة تتحقق له لأول مـرة ففـى عينيها وجد ديناه. وجد عالما فاضلا وكاملا. وهو هنا يشعر شعوراً أكيدا وعميقا بأنه يعيش فى قلب العالم الذى حلم بـه. هنا فى عينى حفيدة أفلاطون ذلك الحد، الفيلسـوف، الحـالم الأول بالمدينة الفاضلة.

وفى المساء وقف هو على السور وأتت هى واتكأت بمرفقيها على السور بعيداً عنه.

هى تتأمل الغروب وهو يتأمل الشمس حجمها صار كبيرا وأحمرا وملتهبا كشهاب كبير وتوزع أشعتها فتـرتعش كل ملامح الأفق بالأضواء الشفافة المخضبة. كانت هى تقف كالعابدة السحب الصغيرة المتناثرة حول الشـمس تقتـرب، تحاصر القرص الكبير، والقرص الكبير يفلت مـن شـباكها بخفة ومهارة هو أيضا يرقب المباراة، هو متحمس للشـمس ربما هى أيضاً متحمسة مثله للشمس، ويكاد هو يصفق عندما يرى الشمس تنفلت من سـحابة صـغيرة مـاكرة ويقـول. أووو.... جول.

كان وهج الشمس الأحمر ينعكس على مياه البحـر. فيبدو وكأن ثمة مصابيح داخل البحر تملأ مياهـه بـالنور. كانت السفينة تواصل انزلاقها وطيور البحر الكثيرة البيضاء والرمادية تصوصو. وتتقلب فى الهواء وتتلاعب بأجنحتها.

وجوانب السفينة المطلية حديثا بطلاء أبيض تعكـس الوهج الذهب فيرتد بالتالى معكوساً على مياه البحـر التـى تحف بالسفينة فتبدو السفينة كأنها تسير فى هالة مـن النـور المتوهج.

السفينة تنزلق.. محلقة وراءها الأفق بشريطة الطويل العاصر بالأضواء والألوان والعبير.. لكن الأفق لا يبتعـد.. إنه دائما على نفس البعد من السفينة. والسفينة تبحر وتسرع فى العوم. والأفق على نفس المسافة دائماً. كأنما هو مشدود بخيوط رهيفة تمتد تحت الماء إلى السـفينة فتسـحبه دائمـا وراءها بشمسه وسحبه الصغيرة وشريطه المتوهج.

البحر بساط تطويه السفينة والدنيا كرة. والكرة تدور والبحر لا يندلق ماؤه لأن الكرة تدور والنـاس والمـدن لا تتقافز فى الهواء لأن الكرة تدور. ماذا لو توقفت الكرة لحظة عن دورانها. لو عطل صغير أصاب المكنة التـى تـديرها،

فوقفت لحظة؟ماذا؟ سوف تتناثر المدن.. فى الهـواء سـوف يندلق البحر فى الفضاء الكونى وسفينتهم هذه سوف تهـوى فى الفضاء. ستتحول سفينة كونية تعوم فى الفضاء فى رحلة أبدية بلا محطات وبلا حبال تشدها إلى الرصيف. هى تبحر دوماً. لن تكون بحاجة إلى وقود ولا زاد. ولن يكون أمامهـا ميناء برية لتقف فيه ولا ميناء استانبول. هـى سـفينة بـلا موانى. تعود فى بحر كونى بلا شطان. ولا ماء، ولا حدود. ولا قاع.

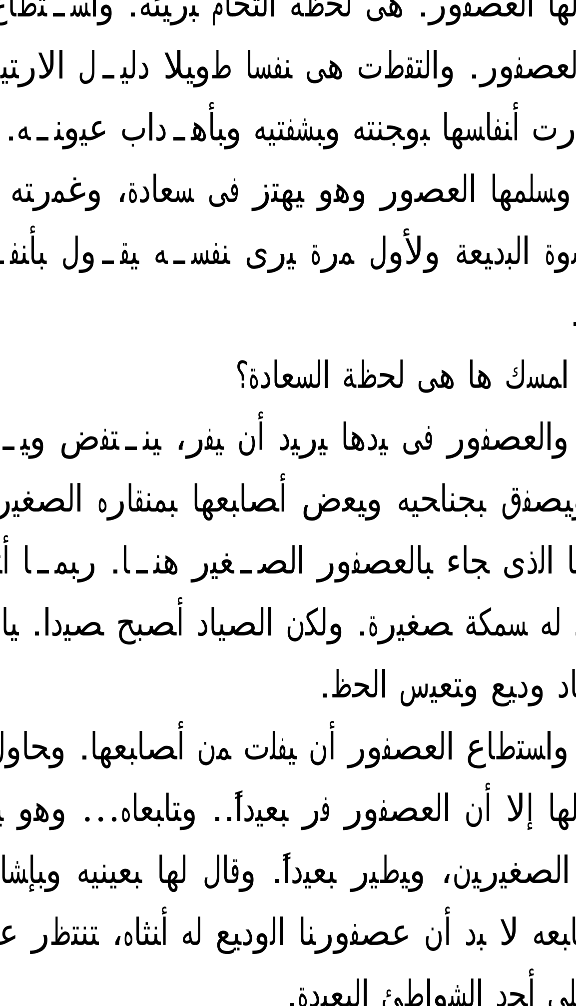
وعندها، عندما تنطلق نداءات الـوداع الحزينـة – تووت توت. توت – ستكون أكثر إيقاعاً وأكثر تعبيراً لأنهـا تودع عالما قديماً. ضيقاً متهالكاً. عالم عاش فيه الناس تفصل بينهم جدران من اللغات والأديان والأجناس والألوان حتـى تصدع وأنهار وهوى. وتستقبل عالماً جديدا.. عالمـا آخـر رحيباً واسعا نهائيا.

وهى عالمه الفاضل – ستكون معـه فـى السـفينة الكونية. ستكون معه حواء الجديدة. وسيكون هو أدام الجديد. سيصنع معها بشرية جديدة بجنس واحد ولون واحد، وديـن واحد وتتكلم لغة واحدة ونظر إليها بارتياح وتساءل بينه وبين

نفسه... فى سذاجة- أتراها أيضاً تـداعب مخيلتهـا نفـس الأحلام؟

كانت هى ما تزال فى مكانها من السور.. تتأمـل.. الوهج ينعكس عليها هى أيضاً على وجهها وشعرها، كأنهـا ليست كائناً بشرياً، بل هى كائنة من كوكب آخـر. هبطـت. إلى السفينة محتفظة بوجهها وهالة النور حولها.

والسفينة تبحر، والأفق كحمل وديع تسحبه وراءهـا، الدنيا قرص يتوهج، وطيـور البحـر الوديعـة مـا تـزال تصوصو، وتداعب نسيم السماء بأجنحتها، واقترب عصفور بحرى رمادى اللون. وقف على السور قريباً منها. وتألقـت فى عينيها فرحة طفولية، ووثبـت.. مـدت يـدها لتمسـك العصفور. العصفور وثب.. فوثبت خلفه، والعصفور يثب... وهى تثب.. العصفور يقفز وهى كـذلك. وظـل العصـفور يثب.. وهى تثب.. العصفور يقفـز وهـى كـذلك. وصـل العصفور بجواره. اقتربت هى في خفة. مدت يدها ولم تطل يدها العصفور. اقتربت حتى التصقت بـه. جسـده التصـق بجسدها وذراعه التصق بذراعها. وأصابعه التقت قريباً مـن أصابعها وحملة يها حرقت كتفه الأيمن فقد مد هو أيضاً يـده



ليمسك لها العصفور. هى لحظة التحام بريئة. واستطاع أن يمسك العصفور. والتقطت هى نفسا طويلا دليل الارتياح التام ومرت أنفاسها بوجنته وبشفتيه وبأهداب عيونه. ثم ابتعدت وسلمها العصور وهو يهتز فى سعادة، وغمرته حالة من النشوة البديعة ولأول مرة يرى نفسه يقول بأنفاس مبهورة.

امسك ها هى لحظة السعادة؟

والعصفور فى يدها يريد أن يفر، ينتفض وينفش ريشة ويصفق بجناحيه ويعض أصابعها بمنقاره الصغير فى غيظ. ما الذى جاء بالعصفور الصغير هنا. ربما أتى ليصطاد له سمكة صغيرة. ولكن الصياد أصبح صيدا. يالك من صياد وديع وتعيس الحظ.

واستطاع العصفور أن يفلت من أصابعها. وحاول أن يمسكه لها إلا أن العصفور فر بعيداً.. وتابعاه... وهو ينشر جناحيه الصغيرين، ويطير بعيداً. وقال لها بعينيه وبإشارات من أصابعه لا بد أن عصفورنا الوديع له أنثاه، تنتظر عودته هناك على أحد الشواطئ البعيدة.

وضحكت.. رغم أنه كان واضحاً أنها لم تفهـم مـا يريد أن يقوله؟

وعادا ينظران إلى البعيـد، كـان القـرص الكبيـر الأحمر، يقف على حافة البحر تماماً، كان يتهيأ للانغمـاس. وهو ينظر إليه. وهى تنظر إلى. كأن هذا القـرص لهمـا. وحدهما. يخافان عليه من الضياع.

كان قرص الشمس فى هذه اللحظة من الغروب يبدو تماما ككرة كبيرة جميلة ملقاة فوق البحر. بل لعله فكر فـى أنه لو كان البحر يابسا لجرى إلى القرص الجميل ودحرجـه بقدمه حتى أتى به هنا ولعب به معها مباراة ودية فى كـرة القدم!

وتمنى لو أن القرص يظل باقيا على هذا الوضـع لا ينغمس. لكن قرص الشمس بدأ تدريجيا فى الانغماس اختفى فى الماء المالح جانبه الأسفل.. وقال فى نفسه

- حتى هكذا ... ليبقى.

ولكن القرص بسرعة انغمس حتى بقى نصفه. ونشر النصف الذى لم يغرق بعد وهجه على كل بقاع البحر – إذن يا إلهى – ليبقى حتى هذا النصف.

ولكن النصف واصل اختفاءه، بقى مجرد الجانب إلا على الصغير كقطعة صغيرة من الحمر تحرق الأفق:

وهذا الشطر الصغير. ألا يبقي؟

وانطفأ الشطر الصغير فى مياه البحر.. وانسحب من فوق العالم ذلك الرداء المتهوج الأحمر، كأن الشمس أعارته له لحظة، ثم عادت فسحبته!

ونظر إليها.

كانت فى عينيها نفس اللهفة. تبادلاً النظرات. كأنهما يقولان بتلك اللغة الأخرى المشتركة التى تتجاوز حدود هـذه اللغات القاصرة الضيقة الحدود...

لقد ضاع قرصنا الذهبي؟

ومن حولهما كان السحر الذى ينبض به المكان.. قد بدأ يختفى فجأة ليعطى الفرصة لكآبة موحشة تظل تتحرك فى كل الزوايا.

وعندما قضياً جزءاً من أول الليل فى صالون السفينة مع بقية الركاب.. كان عندما يبادلها النظرات يشعر بأن بينه وبينها رصيدا كبيراً من الذكريات المشتركة. عن سـفينتهما

الكونية، وعن عصفورهما ذلك الصياد الوديع وعن قرصهما الذهبى الذى ارتشفه الأفق!

وفى عينيها كان يرى نفس المعنى !

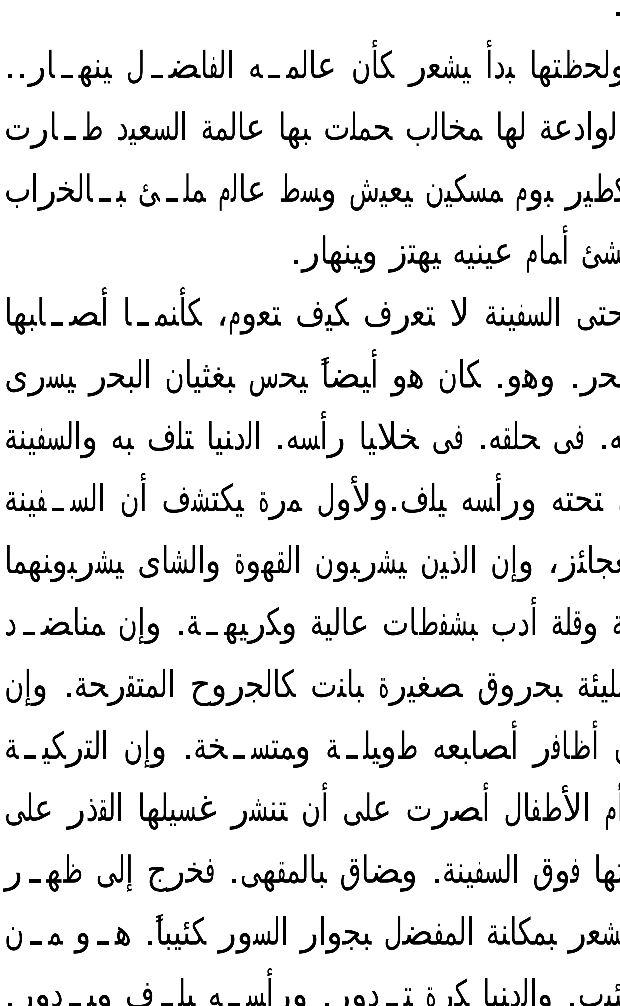
وفى صباح اليوم التالى كانت بلاد اليونان تلوح فـى الأفق شريطاً رفيعاً من الأرض!

وعندما وصلت السفينة إلى ميناء بيربـه، وعنـدما أطلقت صفارتها بالتحية وعندما شدتها الحبال إلى رصـيف الميناء كان هو ما يزال يستمرى سـعادته، ولا يحـاول أن يصدق أنها هنا ستنزل. وأنه لن يعـود إلـى رؤيتهـا. وأن عينيها حبتى الزيتون ستختفيان عن عينيه إلى الأبد!

- توت ... تووووت.. توت

السفينة تنشر مناديل وداعها لمدينة "بيريه"

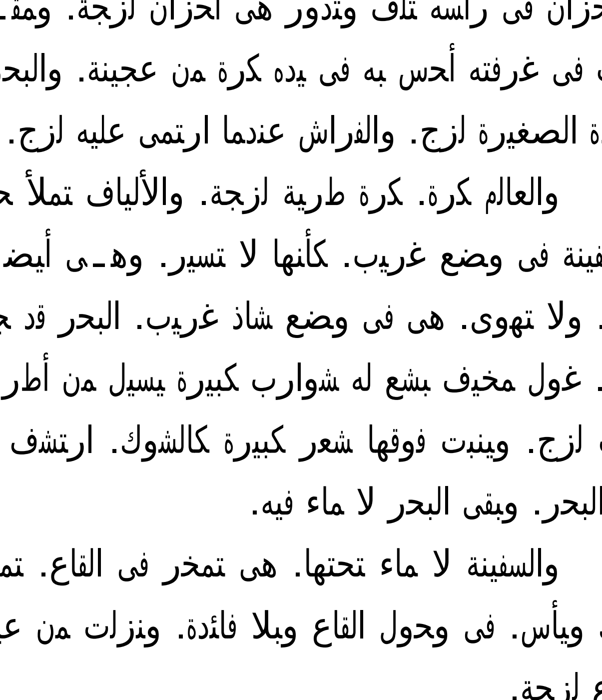
وفى هذه المرة كان النداء الذى تطلقه صفارة السفينة يخاف حزناً مراً وقاتماً فى قلبه.. هو فى المقهى يلتفت حوله شمالا.. ويمينا.. باحثا عنها. كأنه لا يصدق إنها ليست فـى السفينة، وإنها منذ لحظات نزلت إلى أرض بلادها وعندما لم يجدها بدأ يكتشف الحقيقة وبدأ يصدق أن فراشـته الفاضـلة طارت... وإنه فعلا لن يعود إلى رؤيتها.



وإن عينيها حبتى الزيتون حقا، ستختفيان عن عينيه إلى الأبد.

ولحظتها بدأ يشعر كأن عالمـه الفاضـل ينهـار.. الفراشة الوادعة لها مخالب حملت بها عالمة السعيد طـارت وتركته كطير بوم مسكين يعيش وسط عالم ملـئ بـالخراب كان كل شئ أمام عينيه يهتز وينهار.

حتى السفينة لا تعرف كيف تعوم، كأنمـا أصـابها غثيان البحر. وهو. كان هو أيضاً يحس بغثيان البحر يسرى فى جسمه. فى حلقه. فى خلايا رأسه. الدنيا تلف به والسفينة تدور من تحته ورأسه يلف.ولأول مرة يكتشف أن السـفينة مليئة بالعجائز، وإن الذين يشربون القهوة والشاى يشربونهما فى جلافة وقلة أدب بشفطات عالية وكريهـة. وإن مناضـد المقهى مليئة بحروق صغيرة بانت كالجروح المتقرحة. وإن الجرسون أظافر أصابعه طويلـة ومتسـخة. وإن التركيـة العجوز أم الأطفال أصرت على أن تنشر غسيلها القذر على حبال مدتها فوق السفينة. وضاق بالمقهى. فخرج إلى ظهـر السفينة. شعر بمكانة المفضل بجوار السور كئيباً. هـو مـن غيرها كئيب. والدنيا كرة تـدور. ورأسـه يلـف ويـدور.



والأحزان فى رأسه تلف وتدور هى أحزان لزجة. ومقبض الباب فى غرفته أحس به فى يده كرة من عجينة. والبحر من النافذة الصغيرة لزج. والفراش عندما ارتمى عليه لزج.

والعالم كرة. كرة طرية لزجة. والألياف تملأ حلقة والسفينة فى وضع غريب. كأنها لا تسير. وهى أيضاً لا تقف. ولا تهوى. هى فى وضع شاذ غريب. البحر قد جف ماؤه. غول مخيف بشع له شوارب كبيرة يسيل من أطرافها لعاب لزج. وينبت فوقها شعر كبيرة كالشوك. ارتشف كل ماء البحر. وبقى البحر لا ماء فيه.

والسفينة لا ماء تحتها. هى تمخر فى القاع. تمخر بتلبك ويأس. فى وحول القاع وبلا فائدة. ونزلت من عينيه دموع لزجة.

الجراد

ذات مساء..

كان كل شيء فى القرية يسير فى نفس الخط الـذى يسير عليه كل يوم. تماماً كما كان بالأمس وأول أمس، ومنذ عام مضى.

عمران يزاول مهمة رفع الماء مـن البئـر بالـدلو والبقرة، يقدم لمزروعاته وجباتها اليومية، كان يمشى ويرجع خلف البقرة عبر المجر المحفور فى الأرض. وكان الحبـل الذى يجر على (البكرة) تتصاعد منه نغمـة حلـوة رتيبـة، وعمران يغنى، ويستحث البقرة، ويهش عليها بالعصـى ولا يضربها ويواصل رحلته التى لا تنتهى عبر مسافة لا تزيـد بأى حال عن خمسة أمتار!!

والمبروك الفأس بين يديه. والعرق ينز من جبهتـه العريضة. وأنفاسه تتردد مجهدة مبهورة. وهو يعزق الأرض فى بستانه الصغير.

والحاج سالم يحرس حقله الذى يموج بسنابل القمـح والشعير، يطرد حماراً من هنا.ويصيح فى قطيع أغنام مـن جهة أخرى، ويرمى بالحجارة سرباً من العصافير نزل فـى

جهة ما من الحقل وأحياناً يجلس لينصب "المنداف" الكبير فى المكان الذى وجد به آثار أقدام ذئب أو ثعلب يتسـلل تحـت جنح الليل إلى حظيرة الدجاج.

وكل أهل القرية يزاولون أعمالهم اليومية. يتفرقـون هنا وهناك. هذا يسوق قطعيا من الأغنام وقد ضاع صـوته فى صياحها المتواصل – ما ... ماع ... ما..

وآخر يشمر عن ساعديه، ويفتح قدميه، واقفاً علـى حافة أحد الآبار يرفع الماء ويدلقه فى أحواض من الحجـر لجمالة الكثيرة التى راحت تتدافع وتشرب الماء بنخير عال. فى حين يهمهم هو بصوت مجهد.

- يا ههم.. يا ههم ... يا ههم.

كل شيء فى القرية كان هادئاً، طبيعياً ذلك المساء.

وفجأة (وكم هو شئ نادر فى القرية، أندر من الذهب هذا الذى نسميه فجأة) وفجأة أتى أحد الرجال مهرولاً، وأخذ يزرع صيحاته فى القرية، كأنه النذير، كان صوته مشـحوناً بالحرقة واللوعة والخوف وهو ينبئ الناس فى القريـة بـأن "الجراد" على أبواب قريتهم الصغيرة. أن أرجالـه التـى لا

حصر لها تنام هذه الليلة بالبطاح القريبة التى لا تبعـد عـن القرية سوى خمس كيلو مترات.

وكأنما استحال الناس فى القرية إلى مجموعـة مـن المجانين يجرون هنا وهناك فى ذعر وخوف.

كان واضحاً أن كل إنسان فى القرية يشعر بأن وحشاً مخفياً يتربص له.. فى كل زاوية وكل منعطف، وتحت كـل جذع شجرة.

والبعض من أهل القريـة ذهبـوا إلـى شـجيراتهم ومزروعاتهم يكحلون أعينهم بها، ينظرون إليها فـى حنـين ولهفة، فمؤكد أنها مع شروق شمس الغد ستستحيل على يـد الجراد إلى مجرد ذكريات ليس إلا. والحاج سالم ذهب ليقف على رأس حقله ينظر إليه فى حسرة ولوعة، لم يغالب حتى الدمعة التى ترقرقت فى عينيه، ولأول مرة يـرى الطيـور تنزل فى الحقل فلا يرميها بالحجارة، ويرى الشياه تتقدم نحو الحقل فلا يصيح فيها بصوته المشروخ، كان واضحاً أن خبر الجراد يشل كل شئ فى الحاج سالم.

وكان لا حديث فى القرية إلا عن الجـراد. ماتـت حكايات الشيوخ على أفواههم. والنساء اللاتى يـتجمعن فـى

أكوام أمام مستوصف القرية أو على البئر عندما يملئان الماء نسين فى تلك اللحظة أحاديثهن الأبدية عن النساء الأخريـات أرحنهن من السلق فى مراحل السنهن. ولم يعد يشغل الجميع إلا هذا الغول الهائل الذى اسمه "الجراد".

الجراد الذى سيبدأ مع شروق شـمس الغـد غـزوة المدمر لقريتهم الصغيرة، الجراد الذى سيستبيح كل شـجرة فى القرية فيعريها من حلتها الخضراء، يجردها مـن ظلهـا الوارف، يحيلها إلى أعواد يابسة ميتة الجراد الذى سـينزع اللقمة من فم الحاج سالم وعائلة المبروك وأبناء عمران وكل إنسان فى القرية. فهم جميعاً لقمتهم فى أشجارهم وزراعتهم. التى سيجعل منها الجراد... أثراً بعد عين.

الجراد الذى سيحيل كل شبر أخضر فى أرضهم إلى جذب وخراب والجراد.. الجراد.. الجراد. الجراد. الجراد.

ثمة أشياء كثيرة تجعل أحاديث الناس فـى القريـة تتوحد كأن يموت إنسان ما، أو يقبض البوليس على نفر فـى القرية مهما بجريمة ما.. أو تصاب بالجنون امرأة عجوز إلا أن الشئ الذى يوحد أحـاديثهم، ويوجـد معهـا مشـاعرهم ومصائرهم. والذعر فى خطواتهم وفى أعينهم. فهذا ما لـم

تشهده القرية فى تاريخها الطويل إلا هذا المساء. فالانفعـال كان واضحاً فى نظراتهم. فى طريقة كلامهم. فى خطـواتهم عندما يسيرون عبر دروب القرية.

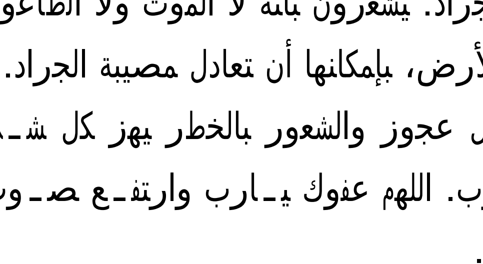
وكعادة رجال القرية دائماً عندما يدق الخطر أبـواب قريتهم الصغيرة، يشـعرون دائمـاً بضـرورة اجتمـاعهم بالمسجد. لهذا فبمجرد ما ارتفعت عقيرة عبد النبـى بـأذان المغرب. وحى على الصلاة.. حى علـى الفـلاح... حتـى هرول كل رجال القرية إلى المسجد. وكان المسجد لا يشـهد مثل هذا التزاحم إلا فى حالتين، عندما يكون هنـاك عيـد، وعندما يكون ثمة شعور بالخطر.

وإمام المسجد، كان أهل القرية يقفون فـى حزمـة واحدة كانوا أحياناً يتكلمون فى صوت واحد. كانت أصواتهم غاضبة. ووجودهم يغشاها حزن عميق. وأيديهم التى نفـرت عروقها الزرقاء يلوحون بها فى عصبية ظاهرة.

وكان بعض الشيوخ قد مضى فى سرد حكايات قديمة عن الجرد. حكى أحدهم عن الجراد عندما هجم على قريتهم ذات مساء بعيد، ليحيلها من قرية مزهوة بوداعتها وجمالهـا وخضرتها، كالعروسة، إلى أرض خراب ينعق فيها اليـوم.

ومرت سنة طويلة قبل أن تسترد القرية ثوبها الـذى نضـاه عنها الجراد. وبالغ شيخ أخر فحكى حكاية قال أنها حـدثت قديماً. عن عشرة من الرجال كانوا ينامون ذات ليلة فى مكان ما بإحدى الشعاب. وكان أن هاجمهم الجراد وهم نيام وفـى الصباح لم يبق لهم على أثر، (نعم..حتى العظام حتى العظام أكلها يا إخوان) ثم يأخذ الخيط الفقى مصباح ليتكلم بطريقتـه الخاصة عن الجراد، فكان يرفع يديه إلى أعلى كأنـه يتقـى بهما صاعقة ستنزلها السماء فوق رأسه، ويفتح عينيه علـى وسعهما فى انبهار كما يفعل دائماً عندما يستحضر شـرتوخ وشنبروخ وغيرهما مما يسميهم أصـدقائى ملـوك الجـان. ويتطاير لعابه وترتج لحيته البيضاء الكثيفة، ويمضـى فـى كلامه، بأنه عندما تقضى إرادة ا العلية بإنهاء هذا العـالم فإن ذلك سيكون على يد طوفان عظيم من الجراد، يرسله ا لفناء العالم، يأكل الرجال والنساء والأطفال، ويـأتى علـى الحيوان والأشجار ويلتهم القصور (وممكن الحديد)أيضاً.

وحكايات فظيعة عن الجـراد وخطـر الجـراد... والجراد. الجراد. الجراد. وكـان الرجـال الـذين يقفـون بوجوههم السمراء الغاضبة، ويشعرون بالمأساة تزداد عمقـاً



فى قلوبهم كانت أحاديث الشيوخ تشحن أعماقهم بمقادير هائلة من المقت، لهذا الجراد. يشعرون بأنه لا الموت ولا الطاعون ولا كل مصائب الأرض، بإمكانها أن تعادل مصيبة الجراد.

وتمتم رجل عجوز والشعور بالخطر يهز كل شـئ فيه اللهم لطفك يارب. اللهم عفوك يـارب وارتفـع صـوت يتساءل فى غضب.

والآن ماذا فكرتم لنا يا رجال؟؟

وتبعه آخر

نعم يا رجال، ما العمل يا رجال؟

وانبثقت أصوات كثيرة، إلا أن جميعها تتساءل، كان الجو مشحونا بإشارات الاستفهام التى تعقف رؤوسـها فـى حيرة، ما العمل؟ ما العمل؟ ما العمل؟

وكان أول اقتراح من الفقى مصباح الذى قال إنـه لا يجوز أن يفكروا فى غيره وهوان يذهبوا جميعاً هذه الليلـة إلى ضريح سيدى أبو قنديل.

وهناك يضيئون له الشموع، ويطلقـون لـه أبخـرة الجاوى والفاصوخ واللوبان، ويتوسلون إليه بجاهه عنـد ا أن يبعد عن القرية هذا الخطر. وبعـد ذلـك بإمكـانهم أن

يرجعوا إلى بيوتهم ويناموا هانئين فسيدى أبو قنديل سوف لن يخيب رجاءهم، سيبعد الجراد عن طريق قريتهم فـى التـو والحين.

إلا أن اقتراح الفقى مصباح سرعان ما ضـاع فـى غمار الاقتراحات الأخرى، التى كان من بينها اقتراح عمران الذى أنصتوا إليه بتمعن، ذلك لأن عمران فى الأربعين مـن عمره أى بمعنى أنه تجاوز سن الطيش وهذه ميزة. والأخرى إنه لم يصل بعد إلى أرذل العمر وهذه ميزة أكبـر. وكـان اقتراحه يقضى بأن يضرموا النار فى جهات متفرقـة مـن البلدة فربما يتخذ الجراد وجهة أخرى غيـر وجهـة القريـة عندما يرى الدخان. ولأنه ليس هناك ما يؤكـد أن الجـراد سيتخذ عندما يرى الدخان وجهة أخرى فإنهم سـرعان مـا عادوا يمدون أعناقهم ونظرائهم فى انتظار اقتراح أخر، رغم عمران الذى كان يحرك قبضته ويحرك رأسـه أيضـاً فـى غضب، مدافعا عن اقتراحه وكان المبروك يغرس رأسه إلى أسفل ولم يقل شيئاً، جسمه فقط كان يتململ فى غير ارتيـاح وكأنه يجلس على قرية نمـل. (والمبـروك فـى الخامسـة والعشرين من عمره، جبهته عريضة، ووجهة يضرب إلـى

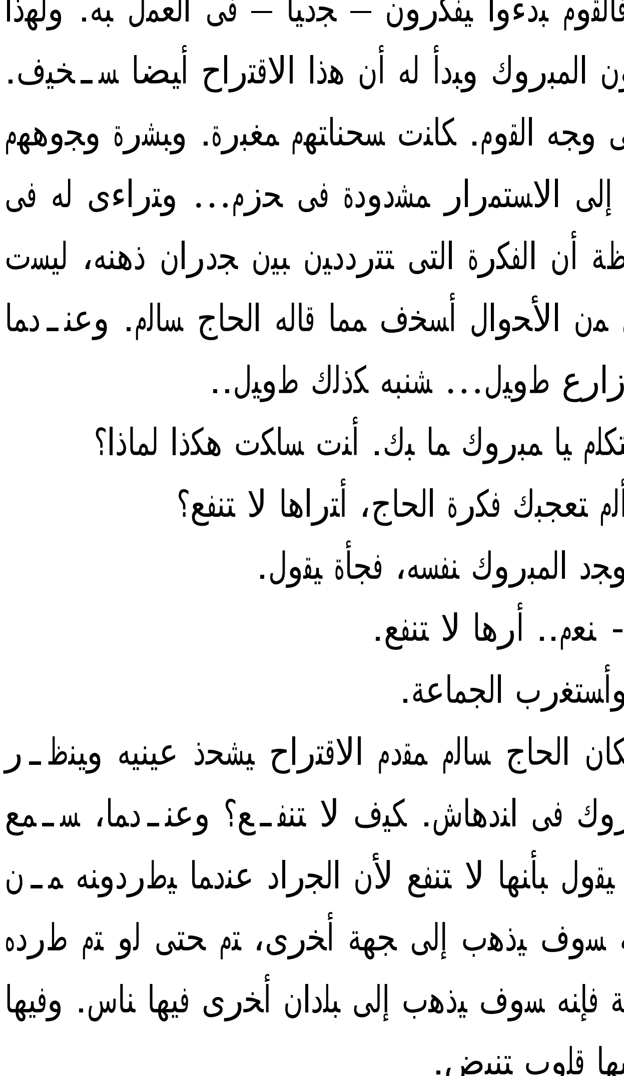
السمرة، وعيناه كالشعلتين تعلوها حواجب خفيفـة الشـعر، والده مات وترك له أسرة كبيرة وبستانا صـغيراً يسـتنزف جهد المبروك اليومى وهو بالكاد يتمكن عن طريق البسـتان من انتزاع لقمة العيش للأسرة الكبيرة).

وكان الفكرة التى تتردد بين جدران دهنه، تبدو لـه أحيانا مضحكة. وكان خائفاً من أنه لو قالها لضـج الجميـع بالضحك، وربما خامرهم الشك فى سلامة عقله..

وكان ما يزال يفكر وهو ساهم ساكت..

ولكزه أحد الجماعة لينبهه إلى أنهم يسألونه رأيه فى الاقتراح الذى قاله الحاج سالم، والذى يريـدهم أن يسـتعدوا لمطاردة الجراد القادم غداً للقرية، بإحداث صخب وضـجة بطرق الحديد، وضـرب الـدفوف، ودق النـواقيس، ورن الزجاجات الفارغة، وعن طريق هذه الضجة الصاخبة سوف تغادر أرجال الجراد القرية بمجرد الوصول إليها وتسلم بذلك القرية.

وكان هذا الاقتراح وحده الذى ما زاغت النظـرات ولا امتدت الأعناق والأذان فى انتظار غيره...



فالقوم بدءوا يفكرون – جديا – فى العمل به. ولهذا هم يسألون المبروك وبدأ له أن هذا الاقتراح أيضا سـخيف. ونظر إلى وجه القوم. كانت سحناتهم مغبرة. وبشرة وجوههم الضاربة إلى الاستمرار مشدودة فى حزم... وتراءى له فى هذه اللحظة أن الفكرة التى تترددين بين جدران ذهنه، ليست بأى حال من الأحوال أسخف مما قاله الحاج سالم. وعنـدما قال له مزارع طويل... شنبه كذلك طويل..

تكلم يا مبروك ما بك. أنت ساكت هكذا لماذا؟

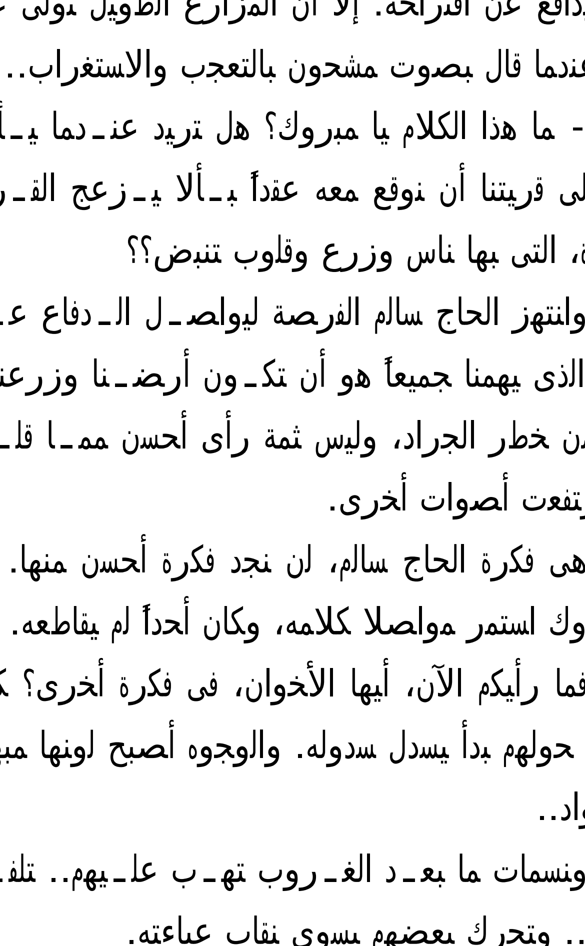
ألم تعجبك فكرة الحاج، أتراها لا تنفع؟

وجد المبروك نفسه، فجأة يقول.

- نعم.. أرها لا تنفع.

وأستغرب الجماعة.

كان الحاج سالم مقدم الاقتراح يشحذ عينيه وينظـر إلى المبروك فى اندهاش. كيف لا تنفـع؟ وعنـدما، سـمع المبروك يقول بأنها لا تنفع لأن الجراد عندما يطردونه مـن جهة فإنه سوف يذهب إلى جهة أخرى، ثم حتى لو تم طرده من القرية فإنه سوف يذهب إلى بلدان أخرى فيها ناس. وفيها زرع وفيها قلوب تنبض.



وعندما قال المبروك ذلك وجد الحاج نفسه بحاجة إلى أن يدافع عن اقتراحه. إلا أن المزارع الطويل تولى عنه المهمة عندما قال بصوت مشحون بالتعجب والاستغراب..

- ما هذا الكلام يا مبروك؟ هل تريد عندما يأتى الجراد إلى قريتنا أن نوقع معه عقداً بألا يزعج القرى المجاورة، التى بها ناس وزرع وقلوب تنبض؟؟

وانتهز الحاج سالم الفرصة ليواصل الدفاع عن اقتراحه الذى يهمنا جميعاً هو أن تكون أرضنا وزرعنا بمنجى من خطر الجراد، وليس ثمة رأى أحسن مما قلت لكم؟ وارتفعت أصوات أخرى.

هى فكرة الحاج سالم، لن نجد فكرة أحسن منها. إلا أن المبروك استمر مواصلا كلامه، وكان أحداً لم يقاطعه.

فما رأيكم الآن، أيها الأخوان، فى فكرة أخرى؟ كان الليل من حولهم بدأ يسدل سدوله. والوجوه أصبح لونها مبهما يلفه السواد..

ونسمات ما بعد الغروب تهب عليهم.. تلفح وجوههم.. وتحرك بعضهم يسوى نقاب عباءته.

واشرأبوا بأعناقهم، فى حين ابتدأ المبـروك يسـرد فكرته ... كان واضحاً إنه الآن يستشـعر اقتناعـاً عميقـاً بالفكرة التى سيقولها. وكانت سيماه تتخذ سمة القائـد الـذى يشرح لجنوده عملية حربية دقيقة..

فكرتى هذه ... أن نأكل نحن الجراد بـدلا مـن أن يأكلنا هو. ومن خلال الظلام تبادل الجماعة نظرات حـائرة ماذا يقول المبروك؟

وأفصح أحدهم عما يدور فى ذهنه.

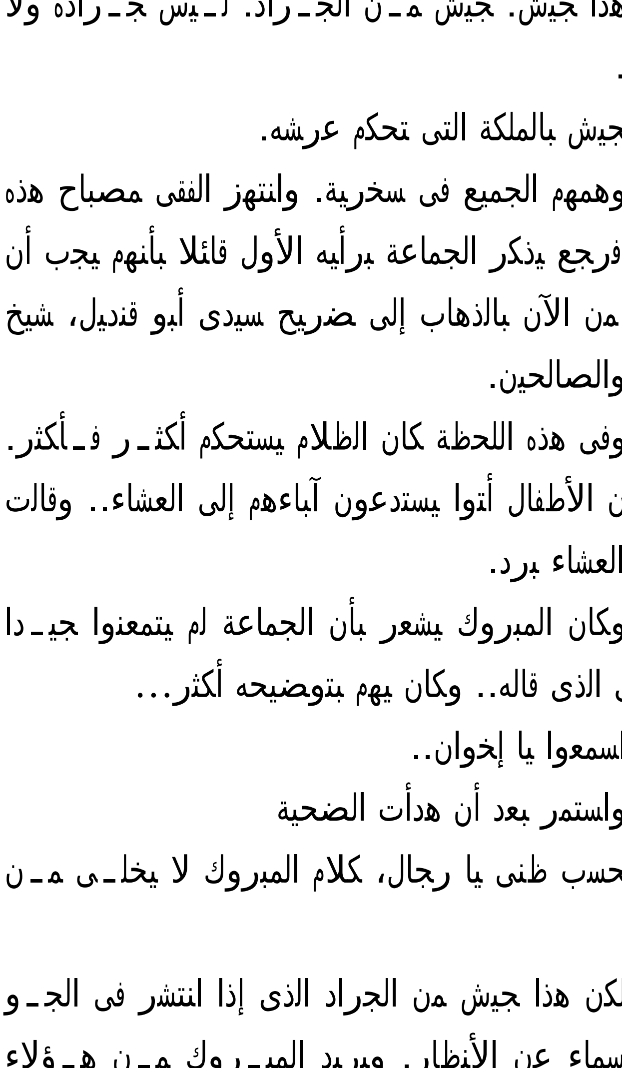
... لم نفهم...؟... كيف نأكله؟!

ربما كان الأمر مفهوما، إذا ما كـان يتعلـق بعـدة جرادات طائشة يمسكها الأطفال. فيقتلونها ويأكلوها. ولكـن من أرجال لا حصر لها فهذا هو العجب.

كان يبدو أنهم على استعداد لهضم جبـل بأشـجاره وتحاريشه وحشراته على أى يهضموا هذا الكلام. وبما أن ما قاله المبروك شئ عجيب.. فلم يكن مستغرباً أن يرين هـذا السكون على الجماعة لينصتوا بوضوح إلى ما يريد أن يقول سى المبروك.

وعندما مضى المبروك يوضح فكرته لم يستطع الجماعة أن يغالبوا رغبتهم فى مصمصة شفاههم وتبادل النظرات الحائرة التى غالبا ما كانت ترافقها شفاه مقلوبة وكان مجمل فكرة المبروك التى مضى يوضحها فى خطاب طويل.. أنهم فى هذه الليلة وفى الساعات الأولى من السحر... تماما تماما ... يجب أن يكونوا مجتمعين فى الطرف الجنوبى من القرية على ألا ينسى كل واحد منهم أن يأخذ معه شوالا فارغاً فأمامهم معركة لم تعرفها عهود المعارك من قبل معركة السلاح فيها شوالات فارغات ومن ثم يتجهون إلى حيث ينام الجراد – وهو عادة لا يستيقظ إلا عندما تلهبه أشعة الشمس – وهناك يعبئون الجراد النائم داخل أكياسهم الفارغة حيث يعودون إلى بيوتهم ليسلقوه فى مراجل سوداء ولينتقل الجراد من أجواف الجيش إلى أجوافهم هم وتكون أروع عملية إبادة عرفها تاريخ الجراد.

وما كاد ينتهى المبروك من إيضاح فكرته حتى كانت التعليقات الساخرة، ترتفع من كل مكان فى هذا الجمع الصغير...



هذا جيش. جيش مـن الجـراد. لـيس جـرادة ولا جرادتين.

جيش بالملكة التى تحكم عرشه.

وهمهم الجميع فى سخرية. وانتهز الفقى مصباح هذه الفرصة فرجع يذكر الجماعة برأيه الأول قائلا بأنهم يجب أن يسرعوا من الآن بالذهاب إلى ضريح سيدى أبو قنديل، شيخ الأولياء والصالحين.

وفى هذه اللحظة كان الظلام يستحكم أكثـر فـأكثر. وكثير من الأطفال أتوا يستدعون آباءهم إلى العشاء.. وقالت لك أمى العشاء برد.

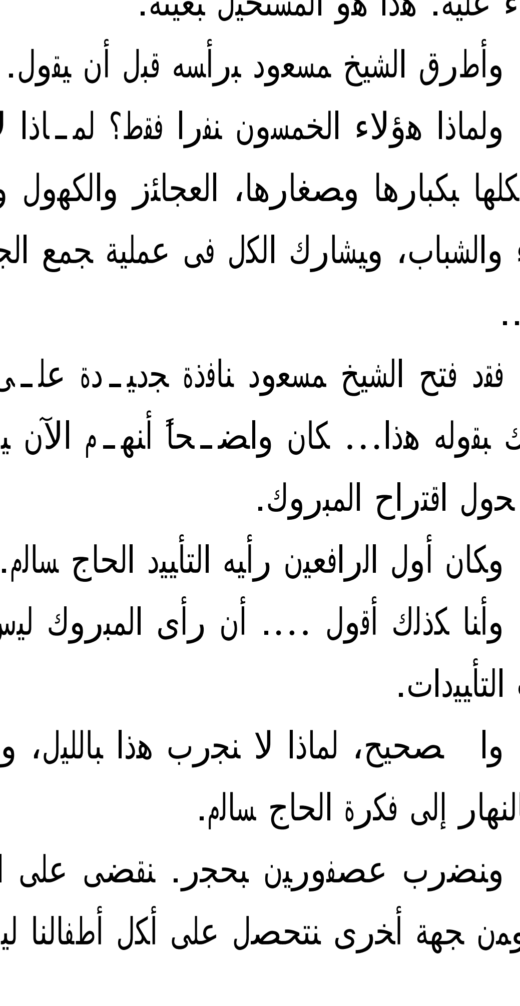
وكان المبروك يشعر بأن الجماعة لم يتمعنوا جيـدا فى الرأى الذى قاله.. وكان يهم بتوضيحه أكثر...

اسمعوا يا إخوان..

واستمر بعد أن هدأت الضحية

حسب ظنى يا رجال، كلام المبروك لا يخلـى مـن صواب.

لكن هذا جيش من الجراد الذى إذا انتشر فى الجـو حجب السماء عن الأنظار. ويريد المبـروك مـن هـؤلاء



المجتمعين الذين لا يزيدون عن الخمسين نفرا جمع الجـراد والقضاء عليه. هذا هو المستحيل بعينه.

وأطرق الشيخ مسعود برأسه قبل أن يقول.

ولماذا هؤلاء الخمسون نفرا فقط؟ لمـاذا لا تخـرج القرية كلها بكبارها وصغارها، العجائز والكهول والأطفـال والنساء والشباب، ويشارك الكل فى عملية جمع الجراد وران سكوت..

فقد فتح الشيخ مسعود نافذة جديـدة علـى اقتـراح المبروك بقوله هذا... كان واضـحاً أنهـم الآن يراجعـون أنفسهم حول اقتراح المبروك.

وكان أول الرافعين رأيه التأييد الحاج سالم.

وأنا كذلك أقول .... أن رأى المبروك ليس به عيب وتوالت التأييدات.

وا   صحيح، لماذا لا نجرب هذا بالليل، وإذا لم تنفع لجأنا بالنهار إلى فكرة الحاج سالم.

ونضرب عصفورين بحجر. نقضى على الجراد من جهة. ومن جهة أخرى نتحصل على أكل أطفالنا ليـومين أو ثلاثة.

شخص واحد فقط. هو الفقى مصباح رفض بشدة هذا الاقتراح المجنون... حيث قال.

أنتم مجانين، لا شك أنكم جميعاً مجانين.

ثم دق الأرض بعصاه، وغادر الجماعة غاضباً. كان واضحاً أن يتعجب لهـؤلاء القـوم الـذين يتركـون رأيـه الرزين... ويتبعون اقتراحاً مجنوناً يقولـه طفـل صـغير كالمبروك.

وانفض الجميع.....

وفى أول ساعات السحر... تماما ... عنـدما كـان ديك فى مكان ما يؤدون وكلاب ينبح النجوم. وعـواد ذئـب حمله الريح. من مكان بعيد بعيد. فى هذا الوقت تماما كـان الطرف الجنوبى من القرية يشهد لقاءا من نوع لـم يعرفـه التاريخ الاجتماعات فى هذه القرية من قبل.

كان عددهم كثيراً... كثيرا جدا ... وقد عبر عاشور فعلا. عما يدور فى أذهان الجميع عندما قال أنـه لـم يكـن يتصور أن القرية تضم ذهاء العدد الكثير من الناس.

وكانت الصفة الوحيدة التى تجمع بيـنهم هـى هـذا الشوال الفارغ، والملقى على كتف كل واحد منهم أما فيمـا

عدا ذلك فهم خليط عجيب من الرجال والنسـاء والعجـائز الذين تحنى السنون هاماتهم والأطفال الذين لم يمنعهم الليـل ولا البرد من أن يتقافزوا هنا وهناك.

وكانت واحدة من النساء قد أحضرت معهـا طفلهـا الرضيع وعامر أتى يركب حمارة. أما عبد النبى فقد أحضر معه عربة اليد الصغيرة ليضع بها شـوالين أو ثلاثـة مـن الجراد وكان عدد من الكلاب يهرول فى أعقـاب ركـبهم.. يشكل ذيل طويل للركب.

وسار ركبهم الكبير يختلط فيه نباح الكلاب. مع نهيق الحمار مع صليل عربة اليد الصغيرة. مع الصوت الصـادر عن أقدامهم التى تضرب عبر الأرض الواسعة.

ورغم أن الربيع يوشـك علـى الفـوات ... إلا أن النسمات فى هذه الساعة من السحر... باردة باردة، بحيـث تجعل وجوههم تلتهب وأذانهم وأنوفهم تحتقن وتحمر. أنهـم يشعرون بهذه النسمات محملة بعبير أشجارهم ومزروعـاتهم بل كان واضحاً أن كل فرد يضمه هذا الجمع يميز الآن فـى هذا العبير... رائحة شجيرات البرتقال فى بستانه. أو سنابل الحنطة فى حقله. أو البلح فى شجيرات نخلة ولم يكـن ثمـة

قمر يضيء المكان عندما كانوا يسيرون. إلا أن النجوم التى تلمع كأنها عيون السماء.. ما يزال ضوءها يبدد شـيئاً مـن الظلمة.

أما عندما وصلوا المكان الذى ينام فيه الجراد فـإن أعمدة الفجر النورانية التى يفجر بها الأفق كانت كافية لتنير أمامهم المكان بحيث يستطيعون جمع الجراد بسهولة.

وكان هذا الأفق يبدو أحمراً ملتهبا.. كان يبدأ حمرته من رئوس القرون الضاربة الى الزرقة ثم يتصاعد بها حتى تتلاشى فى السماء السوداء وكان التهاب هذا الأفق فيه حيوية ونبض وحركة.. حتى ليتهيأ لك أن نارا إلهية هائلة تسـتعر خلف هذه القرون. تجعل الأفق يلتهب بهذه الصورة.

وكان الجراد قد اختار لنومه هضبة عريضة انتشـر فوقها. كان يبدو تحت أضواء الفجر وكأنـه حقـل كبيـر لا ينتهى من سنابل الحنطة المصفرة فى لون الذهب التى حـان أوان حصادها.

وكانت لحظة البدء فى العملية...

وابتدأ القوم يستعدون. خلع الرجال عباءاتهم ورموها فى أكوام متفرقة. وربطوا الأحزمة حول بطونهم. وشـمرا

سواعدهم السمراء التى ينزرع فوقهـا الشـعر. وأصـحاب السراويل الفضفاضة شمروا عن سيقانهم أيضاً واختـارت أم الرضيع مكاناً أمينا تحت شجرة صغيرة وضعت فيها ابنهـا بعد أن قبلته ولفته فى أسماله الكثيرة بعناية.

ووضع عامر القيد فى قدمى حمارة الأماميتين وتركه يأكل العشب. وكان بعضهم قد أحضر معه مطرة المـاء... ونساء أخريات كن يحملن معهن أكياس صغيرة بها أرغفـة من الخبز أتين بها احتياطا لصرخات الأطفال التى ربما تعلو مطالبة بالطعام. كلها وضعوها فى أماكن متفرقة. وكان كـل ما فى المكان يوحى.. بأن عملا عظيما خارقا سيشهده هـذا الفجر.

ولم يحتر القوم من أين تكون البداية ... فقد ابتدءوا من سفح الهضبة.. هكذا بانتظام. على أن يواصلوا الصـعود تدريجيا.. هكـذا بانتظـام. علـى أن يواصـلوا الصـعود تدريجيا... وعلى امتداد الهضبة امتد الحشد الكبير فى خطر مستقيم وكان اتفاق بأن كل واحد عليه أن يمضى فى جمعـه للجراد عبر خط مستقيم أمامه.

وجلس الجميع على أركابهم فوق الأرض..

وامتدت الأصابع صغيرة وكبيرة.. خشنة وناعمـة.. تزج بالجراد داخل خيش أفواهها مفتوحة.. ابتدأ القوم عملية الإبادة للذى كان مقدراً أنه سيبيدهم عندما تشرق شمس هـذا اليوم.

الكل انهمك فى الجمع بهمة لا تقاوم. غيـر آبهـين للأشواك ورؤوس الأحجار المدببة التى ربما أدمت أيـديهم. ولا للحشرات والعقارب المنكمشة من البـرد التـى ربمـا جمعوها فى غمرة اندفاعهم... كل ما يهمهم الآن هو أن هذا الجراد الذى أمامهم يجب أن يجمعوه فى أسرع وقت ممكن. وقبل أن تكبس عليهم الشمس.

وكان الأطفال يجرون عبر منطقة الجـراد إلا أنهـم سرعان ما يخرجون مذعورين على أثـر الصـيحات التـى تركض إليهم زاجرة ناهرة. وأمى سعيدة العجوز لم تسـكت عن الصياح بأنهم يجب أن يعثروا على ملكة الجراد قبل أى شيء آخر والغناء يرتفع من أماكن متفرقة فى هـذا الخـط البشرى الطويل.

كان بعضهم يغنى أغانى الحصاد.. وبعض الشـيوخ ارتفعت عقائرهم بالهجاء الذى كانوا يقولونه أيـام حـربهم للطليان وكأنه ثمة رابطا بين الحرب وبين ما هم فيه الآن.

كانت أصواتهم ترتفع..

إحنى نحاربوا والغير ... بينا ... بينا. على بلادنـا وا لا ولينا...

هاولاد يازين.. هاولاد.

وفى مكان آخر يرتفع غناى جماعـة فـى صـوت واحد.. كانوا يغنون.. يا قمر فى العالى ... فـى العـالى. سافرى وتعالى ... وتعالى..

حتى الأطفال الذين يدرسون بمدرسة القرية اكتشفوا أنه فى هذه اللحظة من الفجر... فى هذا المكـان الشاسـع سيكون الغناء شيئاً جميلاً وحلواً. فما لبثت أصواتهم الصغيرة أن ارتفعت بغناء أخرى نشيد حفظوه فـى المدرسـة. أمـا الصغار جدا الذين لا يعرفون أناشيد المدرسة، لأن أعمارهم مازالت لم تسمح بدخولهم إليها ... فقد اكتشفوا أن شيئاً مـا يختفى فى الوهاد القريبة يردد مع القوم الغناء فـى صـدى

جميل... مما جعلهم يرهفون آذانهـم.. ويفتحـون أعيـنهم الصغيرة السوداء فى انبهار.. ثم يصيحون فى صوت واحد

هو.. هووووو.. هووووو وعندما كان يرد الصدأ.

هو ... هوو ... هووو

كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض فى دهشة... ثـم يضحكون ويصفقون فى فرحة عارمة.. وكأنهم عثروا علـى أعظم اكتشاف فى العالم.

كان الجراد ساكنا هامدا كأنه ميت.

وكان الخط البشرى الطويل يتقدم باسـتمرار. كـان أحياناً يبدو منصرماً. وأحيانا متعرجا. وفى أحيـان أخـرى يستقيم حتى أن الجراد يبدو أمامه وكأنه بساط كبير عريض يطويه هذا الطابور الطويل.

وكل واحد منهم كان يود لو يتمكن من توسيع الرقعة المخصصة ليجمع جراداً أكثر. وحتى عنـدما امتـدت يـد مزارع عجوز إلى الجراد الذى أمام عمران، كادت تحصـل مشادة بين الاثنين، لولا أن المزارع العجوز سحب يده فـى الوقت المناسب.

وبعض الشيوخ الموجودين كانوا فى أزمان بعيدة من ضحايا الجراد.. يستبد بهم الآن شعور غريب بأن ينهم وبين هذا الجراد ثارا قديما.. مما يـدفعهم للجمـع بغلـى ولهفـة وعنفوان. وفى أعماقهم فرحة، بـأنهم الآن يـردون الثـأر. ينتقمون لنكبات سببها الجراد.

وكانت أصوات كثيرة ترتفع بـين الحـين والأخـر تطالب القوم بمضاعفة النشاط.. وكان أكثرها الحاحاً صوت الشيخ مسعود.

أسرعوا يا رجال.. انشطوا يا رجال

كان يقول يا رجال... والفجر يشهد أن نصف هـذا الخط البشرى الطويل يشغره نساء وأطفال. وكانت الهضاب وهى تردد صوت الشيخ مسعود، تبدو وكأنها تبعث بتأييـدها للعملية التى تجرى الآن.

وفى إحدى زوايا الخط لعبت النشوة بأنفار سبعة من بينهم عاشور. فاتفقوا على أن يجروا فيما بينهم سباقاً حـول من منهم الأول الذى يسبق بالوصول إلى قمة الهضبة حيـث نهاية الشوط... ويكسب الرهان ورغم أن الأنفار الستة الذين مع عاشور كانوا يجهدون أنفسهم لدرجة أن حبـات العـرق

كانت تنبثق على جباههم رغم برودة الجو... فإن عاشـور الذى سبقوه فى بداية الأمر... سرعان ما وجدوه يقطع شوطاً كبيراً أمامهم ثم إذا به يصل إلى نهاية الشـوط... ويكسـب الرهان كان عاشور فى الخط الطويل بأكمله.. أول من وصل نقطة النهاية.

وصاح عاشور فى أعلى الهضبة.. وهو يرفع كلتـا يديه فى حماس هاى ... هاى.. هاى.

كان واضحاً أن شعوره فى هذه اللحظة شعور قائـد عظيم ينتصر فى أعنف معاركة الحربية. وتوالى من بعـده وصول الآخرين... وأكياسهم مليئة بالجراد.

وقبل أن تطل الشمس من خلف القـرون البعيـدة.. حتى كان آخر من تبقى من الجماعة قد أكمل نصيبه.

ووقفوا بجمعهم الكبير فوق الهضبة يشـهدون هـذه المعجزة التى تمت على أيديهم.. وفى قلب كل واحـد مـنهم فخر بأنه أحد الذين تمت على أيديهم المعجزة. لـذلك فهـو يبتسم فى سرور.

كانت الهضبة حمراء. لم يتبق من ذلك الجراد الـذى كان يغطيها سوى عدة جرادات تتقافز هنا وهناك وقـد راح بعض من الأطفال يتقافزون وراءها.

وكان الحاج سالم ينظر إلى الأرض الحمراء. ومـا فتأ يردد أنه حتى الآن لا يصدق كيف تم الذى تـم. وكـان النساء يستعجلن الساعة التى سيصلن فيها القرية. حيث يقمن بسلق الجراد فى (حماميس) سوداء ويقلن فـى كـل عمليـة سلق..

حلالك، ملالك، سكينك فى نارك، بسم ا وا أكبر.

ولسوف يسترحن من دوشة أطفالهن بالمطالبة فى كل لحظة بالخبز الذى فى الغالب ما تكون أرغفته المعدودة قـد نفذت. سيكتشف هؤلاء الأطفال أن الجراد طعمه لذيذ. حتـى عندما يذهبون إلى المدرسة لن تكون فى شنطهم الصـغيرة التى تخب متدلية من خيوط على أكتافهم كسرات من الخبـز ... بل ستكون عامرة بحفنات من الجراد المسلوق!

ويرجع أهل القرية الصغيرة.. الأكياس مليئة بالجراد على أكتافهم وأظهـرهم.. والفرحـة فـى قلـوبهم وعلـى

وجوههم.. حتى خطواتهم تبدو فرحانة ... فقد كانوا يمشون وكأنهم يرقصون.

وكان عبد النبى يمسك بعربة اليد الصغيرة المشحونة بثلاثة أكياس من الجراد ... ويجرى بهـا خلـف الأطفـال ويصيح وهو يقلد السيارة - بيب... بيب..

فيكركر الأطفال...

حمار عاشور يخب وكأنه هو الأخر فرحان.. حتـى الرضيع الذى كانت تحمله أمه على ذراعها كان بكاؤه يبـدو جميلا كالغناء وعاشور كان يتندر بالجماعة الذين كسب منهم الرهان.

وجميعهم... كانوا يضمون قلوبهم على الشوق الذى يحملونه لقريتهم الجميلة الوادعة التـى تتـراءى أمـامهم.. كاجمة خضراء غارقة فى أضواء الصباح.

والشمس تشرق عليهم من بعيد.. تجعـل ظلالهـم.. طويلة.. كأنهم عمالقة، وأحيانا كانت تتجمع ظلالهم فى ظـل كبير طويل يتقدم إلى الأمام ... كأنه ظل إنسان واحـد لـم يعرف العالم أكبر منه.. ولا أعظم منه.

الجنون

صارت ذاكرتى تهرب أحياناً منى، ولذلك فإننى لا أذكر منذ متى بالضبط بدأت اكتشف أننى (وبدون وعى أو إدراك) أسير فى الشارع وأنا أكلم نفسى، ما أذكره الآن أن واحداً من أصدقاء المقهى كان أول من ذكرنى أنه رآنى أجلس منفرداً، أفتح فمى وأقفله فيما بدا له على البعد أنه حديث أجريه مع نفسى، ورأى فى ذلك علامة على أن زواجى من عروس الجن قد صار الآن حقيقة، بعد أن كان مجرد دعابة أقولها للأصدقاء كلما جاء ذكر الكائنات الخفية المجهولة التى تحيا معنا ولا نراها، ويلومني.. كيف لم أف بالوعيد الذى قطعته على نفسى بأن أقيم لهذه الجنية عرساً كبيراً أدعو له كل الصحاب، قلت له أن زواجى من الجنية ما زال للأسف الشديد حلماً لم يتحقق بعد، وأوهمته أننى لم أكن أكلم نفسى، إنما هى علكة رآنى أمضغها فظنها كلاماً. ولكن الأمر صادر فعلاً يقلقنى وما ظننته مجرد شئ طارئ وجدته قد بقى معى، وأنتبه إلى أننى لم أعد أكتفى بالهمس، وإنما أتكلم بصوت عال مع نفسى، لقد كان الأمر طبيعياً عندما كان هذا يحدث فى مكان معزول عن الناس، فى غرفة

نومى، أو أمام مرآة الحمام أحلق وجهى، بمثل ما أغنى أو أقول الشعر فإننى أناقش أحياناً أمراً من الأمور بصوت مرتفع وأنا وحدى، وأجد فى ذلك تسلية وتنشيطاً للذهن، ولكن أن أخرج بهذه العادة إلى زحام الشوارع والمقاهى، فهذا تجاوز لحدود ما تعارف الناس على أنه طبيعى ومألوف، ودخول فى دائرة المتعاملين مع الكائنات الخفية، إن الموضع حرية – قلت فى خاطرى، لعلنى قلته بصوت عال، لست أدرى – بأن تنطلق من أجله صفارات الإنذار وتشتعل بالنور اللافتات الحمراء فى كل أروقة العقل وحجراته، وأن أعلن حالة استنفار فى كل أجهزته وملكاته لمعالجة الأمر قبل فوات الأوان، لقد بدأت بأن قررت وضع رقابة شديدة على نفسى، بحيث أمتنع قسراً عن الكلام، أو حتى عن التفكير الذى يقود إلى الكلام حالما أخرج إلى الشارع، فكنت أشد على ملامح وعضلات وجهى، وأعض على لسانى وأطبق فمى بقوة فى محاولة لمنع أية حركة تصدر عنه، ولكن ما أسرع ما تغفل إرادتى وينام الرقيب فى نفسى، فإذا بعضلات الوجه قد أصابها الوهن، وأنتبه إلى نظرة غريبة يرمينى بها أحد الناس ممن يتصادف وجودهم قريباً منى، فأفتش عن

السبب، وأكتشف أننى قد عدت من جديد أكلم نفسى، وأننى لا أكتفى هذه المرة بأن أكلمها وإنما أصحب الكلام بإشارات أرسمها فى الهواء بيدى، فأتمنى لو أن معى شريطاً لاصقاً أضعه على فمى حتى لا أجده وقد بادر من نفسه بالكلام كأنما هو شئ ينفصل عني. وبرغم لحظات الإظلام التى صارت تصيب ذاكرتى، فإنه لم يكن من الصعب أن أنتبه فيما بعد إلى أن بوادر هذه الحالة قد صارت تنتابنى منذ أن رأيت ذات مساء وجه فتاة اسمها "فرح" ليس بالضبط وجهها، بل ضفائرها، فلقد كانت المرة الأولى منذ زمن طويل التى أرى فيها امرأة مكتملة النضج تضع شعر رأسها فى ضفائر، أعرف بالطبع أن مسألة أن تضع امرأة شعرها فى ضفيرتين ليس شيئاً غريباً، بل أننى كنت لا أرى النساء فى أعراس قريتى عندما كنت طفلاً إلا بهذه الضفائر المضمخة بعطور نفاذة قوية، ولكننى منذ ذلك الزمن القديم لم ألتق بضفائر إلا لدى التلميذات الصغيرات وهن فى طريقهن إلى المدارس، ولذلك فقد باغتتنى المشهد، ورأيت نفسى أمتلئ بالدهشة وأنا أرى تلك المرأة السامقة التى ترتدى حلة نسائية ذات طابع محتشم وقور وتضع حول عنقها شالاً، وقد تدلت فوق كتفيها

وحول وجهها ضفيرتان طويلتان تزينهما شرائط رقيقة كالأسلاك، ذهبية اللون، بحيث اختلط لون الذهب بسواد ذلك الشعر، ورأيت فى تلكما الضفيرتين شيئاً عجيباً ومدهشاً كأنما هو ينتمى إلى دنيا أخرى أبهى وأجمل من هذه الدنيا التى حولى، رأيتهما توقظان فى ذهنى عالماً قديماً جميلاً كان ينام منذ أعوام الطفولة فى صدرى بكل ما احتواه من الرؤى والذكريات التى يفوح منها عطر ماء الورد وشذى الزعتر والشيح والكمون، وإذا بهما مصراعاً البوابة التى دخلت منها إلى مدينة ذلك الوجه، الذى عرفت – منذ اللحظة الخاطفة التى رأيته فيها- أنه سيكون مسكنى ومواطن إقامتى. وذهبت على الفور، أقيم لها، وفى نشوة الوجد، عرساً فى رأسى، دعوت إليه أعظم فرق الرقص والموسيقى وكل من أعجبت بهم من نجوم الأشرطة والمطربين، وأخذتها على أنغام الموسيقى إلى دارة تحيط بها الحدائق وتطل شرفاتها على البحر، وجلست إلى إحدى الشرفات أضع رأسى على صدرها، وأبكى الأعوام التى مضت من عمرى دون أن أراها.

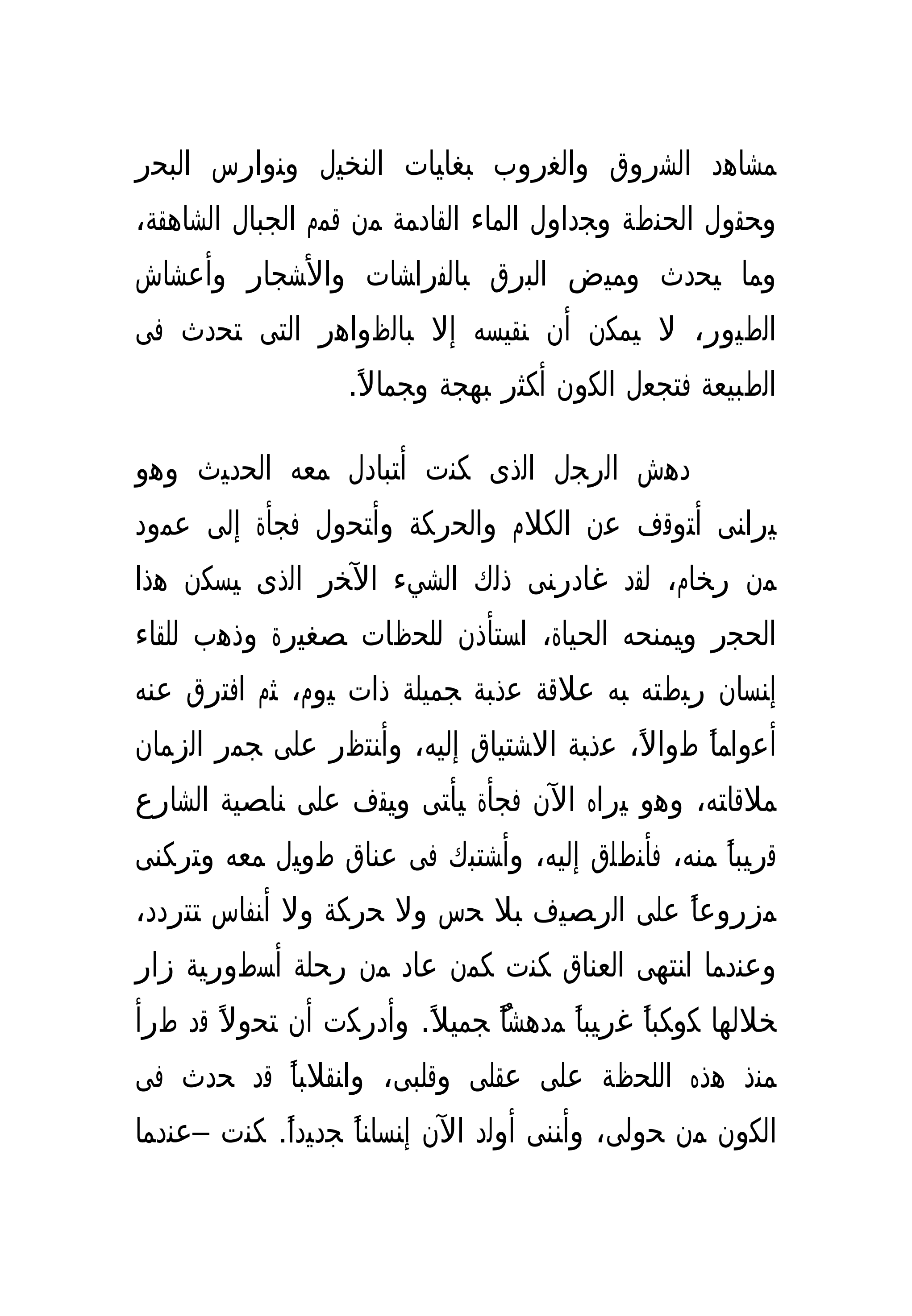
ليست القضية هنا- كما قد يظن بعض المترددين على هذا المقهى – حباً يحدث من النظرة الأولى أو لا يحدث، بل لعله ليس هناك حب يحدث بهذه الطريقة، حتى وإن حدث فهى ليست الطريقة التى يمكن أن تنشأ عنها علاقة حب حقيقية بين رجل وامرأة، إنه مجرد نزوة أو شهوة، حتى وإن نشأ هذا الحب الحقيقى ولم يكن نزوة أو شهوة، فهو إذا مجرد صدفة، حالة شاذة ونادرة ولا يمكن أن تكون قاعدة أو مقياساً، إنما استثناء لكل القواعد والمقاييس، ولكننى وصلت منذ ذلك اليوم إلى قناعة ثابتة(هذا كلام غالباً ما أجد نفسى أكرره بصوت عال وأنا أجلس وحيداً أنتظر فى المقهى صديقاً لا يأتي) بأن هذه المجتمعات المغلقة التى شذت عن نواميس الطبيعة وقوانينها فجاءت تبنى جداراً من العزلة بين رجالها ونسائها وتمنع – فى حسم وقوة – فرص اللقاء بينهم وتعتبر حباً ينشأ بين صبى وصبية خروجاً عن المسلك الصحيح، وتسمية فاحشة أو فساداً أو إثماً، وترى فيه جريمة ضد التقاليد يستحق صاحبها عقاباً قد يصل إلى حد الموت، كأن هذا اللقاء لو تحقق لغاص البحر وفسد نظام الكون وابتلع الطوفان الكرة الأرضية (لعلها تعليمات إله وثنى يعبدونه

سراً) فهى مجتمعات غريبة، تمضى متطوعة إلى ممارسة هذا القمع ضد أفرادها، ومسخ إنسانيتهم، وقتل فرصة الحياة فى نفوسهم فى عملية لا يمكن مهما جلست إلى المقاهى تناقشها أن تجدلها تفسيراً سوى أنها رغبة فى الانتحار واحتفال لا إنسانى بالعقم والموت. فى مثل هذه المجتمعات تكون تلك النظرة الخاطفة التى ينشأ عنها حب، وتحدث فى حياة الإنسان انقلاباً، وتشعل فى ثلج حياته ناراً، تكون تلك النظرة (وليتفضل هذا "النادل" الذى أحضر القهوة ثم وقف يمد أذنيه ويتصنت فى سخرية إلى كلماتى بالجلوس إلى جوارى إذا شاء فأنا لا أعبأ به أو برأيه حتى أخشاه، سيأتى من يبكيه إذا مات ولكننى أراهن أن موته ليس إلا استمراراً لموته فى الحياة) تكون تلك النظرة هى الأمر الطبيعى الوحيد فى زحمة كل هذا الشذوذ، تكون هى القاعدة، وليست القاعدة حباً ينشأ عن علاقة تعارف تمتد لأيام وشهور كما يحدث فى المجتمعات التى لا تعبد إلهاً وثنياً ويمنع هذا اللقاء، إن تلك النظرة هى فرصة إنسان هذا المجتمع – رجلاً كان أو امرأة – فى أن ينفذ من هذا الحصار، وأن يقهر هذا الموت، وأن يحقق لنفسه هذا اللقاء الذى لا تكون الحياة بدونه حياة (وليت

هذا النادل – وهو يضحك – يدرك أنه كان فى يوم من الأيام بشراً كالأنبياء، وأن إلهاً وثنياً قاسياً تخصص فى طمس إنسانية الإنسان قد حوله إلى مجرد جواد من الخشب انطفأ فى عظامه وعروقه وعينيه ذلك الوميض الذى يصنع بهجة الحياة) لأنه اللقاء الوحيد – أيتها الجياد الخشبية – الذى يحمل إلى صقيع العمر دفقة الضوء التى تعيدكم بشراً، تدفئ عظامكم وتسرى مع كريات الدم فتتوهج بالرغبة فى الحياة قلوبكم ويتحول نبضها إلى لحن يمد خيطاً يجدد صلتكم بالنجوم التى كثيراً ما ننسى أننا فيها نشأنا وإليها نعود مرة أخري. إنه اللقاء الذى يمنح وجودنا معنى، لولاه لبدا الكون كله مرد أضحوكة، والحياة ليست سوى أكذوبة، ولجاء طائر الموت يطبق على الأرض ويطويها تحت جناحيه كالبيضة. ولذلك فإننى صرت مؤمناً بهذه القوة التى يمكن أن تكتسبها تلك النظرة السريعة الخاطفة التى تتم فى صمت واستحياء، مؤمناً بالقدرة الهائلة على التفجير التى تكمن بها، لأنها وسيلتنا الوحيدة لتحقيق ذلك اللقاء، وصار على هذا العقل الباطن الذى احتوى أجهزة و"أرشيفا" وأسراراً توارثها البشر منذ بدء التكوين توجه سلوكنا فى اللحظات السريعة الحرجة،

الحاسمة من حياتنا، التى لا تقدر فيها مداركنا ووعينا على فعل شئ، لأن كل شئ يتم فيها بسرعة أقصى مما يمكن للإرادة الواعية أن تتصرف أو تجرى حساباتها أو تقوم بوضع ترتيباتها أو تعد خسائرها وأرباحها، صار على هذا العقل الباطن أن يتولى الأمر برمته، وأن يمد أعيننا وعقولنا فى تلك اللحظة الصغيرة العابرة التى قد توازى دقيقة أو جزءاً من الدقيقة بمقياس الزمن العادى، ولكنها قد تكون عمراً بالمقاييس الأخرى التى يحتكم إليها ذلك العقل، أن يمدها بكل ما اكتسب من خبرات وكل ما وعى ما معارف وكل ما اختزنه من معلومات لاستخدامها جميعاً فى اتخاذ ذلك القرار الذى قد يبدل حياتنا ومصائرنا. ولذلك فإننى عندما رأيتها تعبر الطريق وكنت لحظتها أقف بمحاذاة أحد المتاجر مستغرقاً فى حديث عابر لا أذكر موضوعه الآن مع صاحب قابلته صدفة – وتأتى لكى تقف قريباً منى تتأمل البضائع المعروضة بنافذة المتجر، ورأيت ذلك الشعر المضفور بأسلاك الذهب، توقفت من فورى عن الكلام وذهبت إليها بعقلى وبصرى، ولعل هذا ما يمكن أو ما يجب أن يفعله أى رجل فى حضور امرأة لها ضفائر "فرح"

وقامتها ووجهها، كل ما فى الأمر أننى ذهبت ولم أعد من رحلتى أبداً، وبدلاً من أن تلتقى الأعين وتفترق كما يحدث فى مثل هذه الحالات، تتبادل كلاماً صامتاً سريعاً وتمضى، فإن الأمر اتخذ مسارا آخر هذه المرة. إن شيئاً ما يتفاعل الآن فى كيمياء بدنى، لقد نظرت فى أعين نساء كثيرات، وكان الموقف ينتهى دائماً عند تلك اللحظة، حتى وإن لم ينته فإن ما يتبقى منه هو مجرد تلك الرغبة الغريزية فى أن ألتقى معها فى غرفة نوم واحدة، ولكننى الآن أعرف أن الموقف لا ينتهى عند تلك النزوة، أو تلك الرغبة، وأنه لن ينتهى أبداً، وأن تواصلا قد تم الآن، أو تماساً، أو تصادماً، أو اكتشافاً، أن شيئاً كان قد ضاع منى وعشت العم كله أبحث عنه إلى أن وجدته فى هذه اللحظة، وأن تبدلاً قد طرأ على حياتى لا أستطيع له دفعاً، ليكن عملية كيماوية، أو شيئاً لا إراديا فوق المنطق أو المألوف، فوق المقاييس الصغيرة التى تعودنا أن نقيس بها مصالحنا اليومية وأمور حياتنا المعيشية، تلك الأمور الصغيرة، الضئيلة، التافهة، ولكن شيئا كهذا لا تنفع معه هذه المقاييس، يجب ألا نقيسه إلا بما يحدثه ظهور القمر بقطيع الغزلان ووعول الصحراء وكائنات الغابة، وما تحدثه



مشاهد الشروق والغروب بغابات النخيل ونوارس البحر وحقول الحنطة وجداول الماء القادمة من قمم الجبال الشاهقة، وما يحدث وميض البرق بالفراشات والأشجار وأعشاش الطيور، لا يمكن أن نقيسه إلا بالظواهر التى تحدث فى الطبيعة فتجعل الكون أكثر بهجة وجمالاً.

دهش الرجل الذى كنت أتبادل معه الحديث وهو يرانى أتوقف عن الكلام والحركة وأتحول فجأة إلى عمود من رخام، لقد غادرنى ذلك الشيء الآخر الذى يسكن هذا الحجر ويمنحه الحياة، استأذن للحظات صغيرة وذهب للقاء إنسان ربطته به علاقة عذبة جميلة ذات يوم، ثم افترق عنه أعواماً طوالاً، عذبة الاشتياق إليه، وأنتظر على جمر الزمان ملاقاته، وهو يراه الآن فجأة يأتى ويقف على ناصية الشارع قريباً منه، فأنطلق إليه، وأشتبك فى عناق طويل معه وتركنى مزروعاً على الرصيف بلا حس ولا حركة ولا أنفاس تتردد، وعندما انتهى العناق كنت كمن عاد من رحلة أسطورية زار خلالها كوكباً غريباً مدهشاً جميلاً. وأدركت أن تحولاً قد طرأ منذ هذه اللحظة على عقلى وقلبى، وانقلاباً قد حدث فى الكون من حولى، وأننى أولد الآن إنساناً جديداً. كنت –عندما

دخلت المرأة إلى المتجر – قد تركت صاحبى ودخلت معها، مسحوباً بخيط النور الذى يمتد من وجهها وضفيرتيها، وقفت فى صمت المتعبدين أتأمل جمالها، نظر عامل المتجر بفضول نحوى، فأحسست بالخجل والارتباك، قطعت صلاتى وانشغلت بتقليب بعض القمصان المعلقة قريباً منى، رأيتها أثناء ذلك تأخذ حاجتها من الألبسة وتمضى، صرخت كالغريق لا تتركينى قبل أن أعرف كيف ألقاك مرة أخرى، كانت صرخة صامتة لم يتحرك بها فمى، رأيتها تعود من فورها وتقترح تعديلاً فى أحد الأثواب ستأتى لتأخذه فى مثل هذا الوقت من الأسبوع القادم، أدركت أنها سمعت أفكارى وأنها تضرب بذلك موعداً لى، رأيتها تنظر نحوى فنظرت مؤكداً على الموعد، أردت فى تلك اللحظة التى شفنى فيها الوجد أن أختبر هذه القدرة العجيبة على انتقال الأفكار بينى وبينها، فسألتها فى سرى عن اسمها ووقفت أنتظر النتيجة، كنت كمن رمى بعصا فوق الأرض وبقى ينتظر فى عبط وسذاجة أن تصبح تلك العصا ثعباناً، ولا أدرى لماذا لم أندهش أو أستغرب أو أسقط فوق الأرض مغشياً على من هول المفاجأة، عندما تحرك ذلك الفم الجميل ونطق بالاسم،

بدا وكأننى كنت على يقين من أنها ستتلقى الإشارة وستوافينى بالإجابة لا محالة.

- فرح.

نطقت الاسم وكأنها تقصد عامل المتجر لكى يكتبه فوق الصندوق الذى احتوى الثوب فوق الصندوق الذى احتوى الثوب، إذا فهى "فرح"، لا أدرى إذا ما كنت قد فكرت يوماً باسم المرأة التى أتمنى أن أحبها، ولكننى لو فكرت لما وجدت اسماً غير هذا الاسم، سيكون منذ اليوم تميمتى وتعويذتى التى أدخل بها النار فتصير برداً وسلاماً، وأشق بها البحر فيمتد أمامى طريقاً، وأركب بها الريح فيصير بساطاً أو جوداً، ورأيت نفسى بعد هذا اللقاء أمشى فى الشارع وكأننى أمشى فوق السحاب، كأننى قد تحررت من أثقال كنت أجرها فى قدامى وأحملها فوق ظهرى، صرت ارباً تمد صفحة نهر تستحم النخيل على الشاطئ تعنى له وتبارك رحلته (هكذا صرت أرى الشارع والناس والأبنية وأعمدة الكهرباء) وبدأت أكتشف جمالاً يكمن فى العالم من حولى ولم أكن أراه كأنه عصابة كانت تغطى بصرى، ولأول

مرة أفهم معنى أن تكون جميع الأغانى تتحدث عن الحب، وأن يكتب الشعراء أجمل قصائد عن الحب، وأن تكون أجمل القصص والمسرحيات والأفلام هى التى تتخذ من الحب موضوعاً لها، لم أكن أفهم معنى ذلك، بل كنت أحياناً أستغربه وأستهجنه، أسمع هذه الأغانى وأقرأ هذه القصص والأشعار وأشاهد هذه الأفلام وأرى فى المعارض والمتاحف تلك اللوحات والتماثيل التى تمجد الحب وتصنع له الهة فلا تثير فى نفسى شيئاً، كأنها تتحدث عن كائنات أخرى، أو كواكب أخرى، وليس عن بشر مثلى، لقد كنت أعمى، إلى أن جاء وجهها يضئ الدنيا أمام عينى فأعرف إننى إنسان قادر على الحب، أعرف معنى أن يحب الإنسان، ومعنى أن تحتفل بالحب كل هذه الأجيال المتعاقبة من بنى البشر وتجعله موضوعاً لأجمل وأخلد ما فى تراثها، أننى الآن أستغرب بل أستنكر أن ينشغل الناس بشيء آخر فى الدنيا غير هذه العاطفة، ولو أن الأمر بيدى لجعلت الصحف لا تتحدث إلا عن هذا الموضوع ولا تعقد المؤتمرات إلا من أجله، ولا يقرأ المذيع فى نشراته سوى أخبار العشاق والمحبين، فليس

ثمة شئ فى الدنيا يستحق أن نشغل به حياتنا أجمل وأنبل وأرقى من الاحتفال بهذه العاطفة!

جعلت من موعد مجيئها عيداً، لم يهمنى أن أنفق كل مدخراتى فى شراء بدلة جديدة أرتديها يوم اللقاء، ولا أن أذهب لأول مرة فى حياتى إلى أغلى صالون للحلاقة فى المدينة كى أبدو أنيقاً جديراً بلقائها، وأردت أن أكون عملياً فعكفت على إعداد رسالة أقدمها لها لحظة أن أراها، شرحت فى الرسالة ما أحدثه ظهورها من تغيير فى حياتى وقلت لها أن السنوات التى مضت من عمرى لم تكن إلا سفراً طويلاً إليها، وفى ختام الرسالة كتبت لها عنوانى، وأرقام هواتف الأماكن التى أتردد عليها وسألتها أن تتصل بى لأنها إن لم تفعل فسيكون فى ذلك هلاكى، وضعت الرسالة فى جيبى وذهبت إلى ذلك الموقع من الشارع حيث رأيتها أول مرة، كنت على ثقة من أنها ستأتى، ولكن إحساساً غامضاً كان طيلة ذلك اليوم يلازمنى ولم أستطع له رداً، ولم أجد لمجيئه سبباً، إحساساً غامضاً بأن لقاء اليوم مع " فرح" لن يكون سوى وداع، وبأننى سوف لن ألتقى بها بعد ذلك أبداً، ولكننى منعت الغراب الذى جاء يحمل هذه الأخبار من أن يفسد على

فرحى، صممت على أن أطرده من فوق رأسى، لن أتركها تضيع منى، سوف أتبع خطاها وأمضى خلفها ولن أتركها برغم هذا الغراب الذى أراه الآن يجلس فوق إحدى الشرفات ينظر نحوي.

شيء كأنه دوار البحر أصابنى، ولكن هذه النشوة لا يعرفها من يركب البحر، وهذه ليست موجة تأتى، إنها "فرح" هبطت من سيارة كانت تقلها وأراها الآن قادمة نحوى، ترتدى ثوباً له زرقة السماء وتضفر شعرها بأسلاك الذهب وتومئ لى بتحية صامتة، ركضت على الفور نحوها، أرتمى فوق صدرها وأبكى، أعانقها وأبكى، أعفر وجهى بعطر ضفائرها وأبكى، أبثها فى كلمات تختلط بالشهقات ما أحمله لها فى قلبى، وأقبل فى شكر وعرفان بالجميل جبينها وعينيها وخديها وفمها وعنقها ويديها، وأهبط راكعاً أقبل فى تبتل وخشوع قدميها الصغيرتين المباركتين، أو هذا ما بدا لى أننى فعلته، ولكننى لم أفعله، كانت الرسالة فى جيبى، ونوارس الفرحة تملأ الدنيا غناء من حولى، وهى تدخل المتجر، تجد صندوق الثوب جاهزاً تأخذه وتقف بانتظارى وضعت يدى فى جيبى كى أدفع لها بالرسالة، ولكن يدى لا تطاوعنى،

ليذهب عامل المتجر إلى الجحيم قلت فى نفسى، وليذهب معه إلى هناك كل هؤلاء الفضوليين الذين ينظرون فى له نحوى، سأذهب الآن إليها، وسأقول لها وبحضورهم جميعاً: إننى وبرغم رعب تقاليدهم أحبها، وإن هذا لقاء لن نفترق بعده أبداً، وسأضع يدى فى يدها وأمضى إلى حيث لن يستطيع أن يلحق بنا أحد، ولكننى وجدت نفسى أقف مبهوراً، عاجزاً عن إبداء أى فعل أو تصرف، والوقت يمضى، والأعين كأنها عدسات تراقبنى، والأخ أو الأب أو القريب الذى ينتظرها فى سيارته أمام المتجر يطلق بوقه يتعجل قدومها، وفرصة العمل الوحيدة فى النجاة، أراها الآن تهرب منى، لعنت الخجل والتربية القروية، وتقدمت بسرعة وبإحساس من يقفز فى النار كى أضع الرسالة فى يدها، لكننى قبل أن أصل برسالتى إليها سمعت عامل المتجر يطلق صيحة بشعة غريبة كأنه رأى عشرين أفعى تتسلق الآن جسمه، ويطلب من كل من لا عمل له الخروج من متجره فوراً، كان الرجل يوجه كلامه نحوى، ويضع عينيه شهابين من الحقد فى وجهى كأنه يقول أنه قد كشف أمرى وعرف دناءة مقصدى وسيفضحنى الآن أمام هؤلاء الناس، عاودنى خوفى وعاودنى خجلى

ورأيت العرق ماء يغسل جسمى، أدرك بعض الزبائن القريبين منى أنه يقصدنى، وظن بعضهم الآخر أن الكلام موجه إليهم أيضاً، فامتلأ جو المتجر لغطاً ونقاشاً وصيحات احتجاج، جاء الرجل الذى ينتظرها فى السيارة يسحبها من يدها ويمضى، وانتشلت نفسى من موقفى، وأنا أرى هذه المرأة التى أصبحت كل الكون بالنسبة لى تهرب كالشعاع من بين أصابعى، وأصبح بأعلى صوتى أن تنتظرنى، ولكن الأمر كان قد انتهى، والسيارة مضت تشق بها زحام الطريق، وأنا مسكون بالرعب والجنون أركض خلفها وأهتف باسمها غير عابئ بما أحدثته من ارتباط لحركة المرور، أبواق السيارات تنطلق من ورائى، وشتائم السائقتين تنهمر كالمطر على رأسى، وجمهور الشارع يقف مشدوهاً يراقبنى، و"فرحي" تغيب عنى إلى الأبد، ولم أدر ما الذى حدث بعد ذلك، فقد وجدت نفسى فى آخر النهار أرتمى فوق أعشاب إحدى الحدائق العامة، وأنا أبكى لا أكاد أصدق أن "فرح" قد مضت وهى لا تعرف لى اسماً ولا عنواناً، ولا أعرف لها مكاناً ولا عنواناً ولا اسماً غير اسمها الأول، ورأيتنى فى الأيام التالية أوف الشوارع أتكلم مع نفسى دونما حرج،

أصرخ منادياً اسمها، أو أنهمر فى الضحك أو البكاء، لا يهمنى أمر الناس أو تعليقاتهم، لقد صرت لا أطيق الاقتراب منهم، إننى أنفر من الحديث إليهم، بل أننى فى الحقيقة أكرههم، جميعهم صرت أكرههم، واذهب أبحث عن "فرح" لدى كل الشبابيك المضاء ليلاً بأحياء المدينة، أمام كل الأقواس والبوابات الكبيرة التى تفضى إلى مداخل الساحات والميادين والأسواق، أطوف كل المتاجر، أتفرس فى وجوه النساء اللاتى تقلهن السيارات، وأذهب إلى الشواطئ والحدائق والفنادق، لكن "فرح" لا تأتى، لقد غيبها صمت كأنه صمت الموتى، وأعود فى آخر جولاتى إلى المقهى، فأجد أن أمر علاقتى بامرأة الجن لم يعد يعتبره "زبائن" المقهى مجرد دعابة، لقد صار حقيقة يعاملنى هؤلاء الناس على أساسها(بعض هؤلاء أصدقاء قدامى ولكن ذاكرتى لم تعد للأسف الشديد تتعرف إليهم) بل صرت أراهم يعرضون أمامى مشاكلهم وأسرارهم لكى أنقلها إلى حبيبتى الجنيه لتجد لهم حلاً، وبرغم أننى كنت أصرفهم بخشونة عنى، وأرمى لهم النقود التى جاءوا يقدمونها لى مقابل هذه الخدمة، وأنفى عن نفسى هذه الأكذوبة، إلا أننى مع مضى الوقت بدأت أجد

فى الأمر شيئاً من التسلية والطرافة، وأجد أن فكرة علاقة أعقدها مع إحدى الجنيات- وليكن لها قوام فرح وجمال عينيها وضفيرتيها- فكرة لا بأس بها، ولم يكن الأمر صعباً، فلقد دعوت إلى وجبة عشاء فى بيتى، أول جنيه أقابلها فى الطريق قبلت مشكورة عزومتى وأخبرتها بقصة حبى لصبية من بنات مدينتنا اسمها "فرح"، ضحكت امرأة الجن وتصورت لى على الفور بصورة "فرح"، أذهلتنى المفاجأة، فأخذتها إلى أحضانى وسألتها أن تبقى إلى الأبد بين ذراعى، لم أكن أظن أن الأمر بهذا اليسر وهذه البساطة، تأسفت لتلك الأيام التى قضيتها فى البحث عن "فرح " فى حين أن عالماً قريباً منى هو عالم الجن يحتوى على آلاف النساء اللاتى يشبهنها، اتخذت تلك الجنية عشيقة لى، فلم أعد أفارقها لحظة واحدة، أتجول بها فى الأسواق وأذهب معها إلى المقهى، وأتنزه برفقتها فى الحدائق والشواطئ، وأنا أخرج لسانى ساخراً من كل هؤلاء الرجال الذين يملئون شوارع المدينة والذين أنكروا على فيما مضى أن أتبادل كلمة واحدة مع الفتاة التى أحببتها، بل أنكروا أن تكون لى حبيبة، لتكن حياتهم انتظاراً عقيماً للموت، وليكن إيذاء الذى وقهرها عبادة

يقتربون بها لذلك الإله الوثنى الذى يسمونه "التقاليد"، وليقيموا جدراناً تفصل بينهم وبين نساء مجتمعهم خوفاً من الطوفان القادم، فلقد "نفدت" بجلدى وخرجت من دائرتهم وحققت حلاً لمشكلتى، وها هى حبيبتى بين أحضانى، أضم جسمها إلى جسمى، أو ألثم فمها وأرتشف من رضابها، أو أستلقى فوق أعشاب الحديقة بجوارها أعبث بشعرها ونهديها، دون أن يثير ذلك فضول أحد منهم أو غضبه، لقد أعماهم ا عنى، وها هى تطعمنى من طعام أهل الجن وتسقينى من شرابهم وتأخذنى فى سياحات إلى عوالم أبهى وأجمل من عوالم هؤلاء الناس وتمنحنى حباً يغمر حياتى بأمطار الفرح، بل إنها باحت لى بسر غريب وهو أنها أحبتنى منذ أن كنت طفلاً، وأنها انتظرتنى إلى أن صرت رجلاً أجلس إلى المقهى، ثم بدأت تفكر فى طريقة تتعرف بها على، وأن "فرح" ذاتها لم تكن سوى وسيلة استعملتها لتحقيق تلك الغاية، لقد كانت "فرح" مجرد باب دخلت منه إلى عالم مليء بالحب قدمته لى هذه المرأة من نساء الجن، كوة فى ذلك البناء المظلم المرطب المتآكل القديم، كوة يأتى منها الضوء،

صنعتها" فرح" ثم ذهبت، لكى أنفذ منها إلى هذه الدنيا الجديدة!

الدعابة

كان ما حدث أكبر من أن تصدقه عقولهم. لكنه حدث. وها هم أمام الكارثة التى انتهى بها يوم الاجازة.

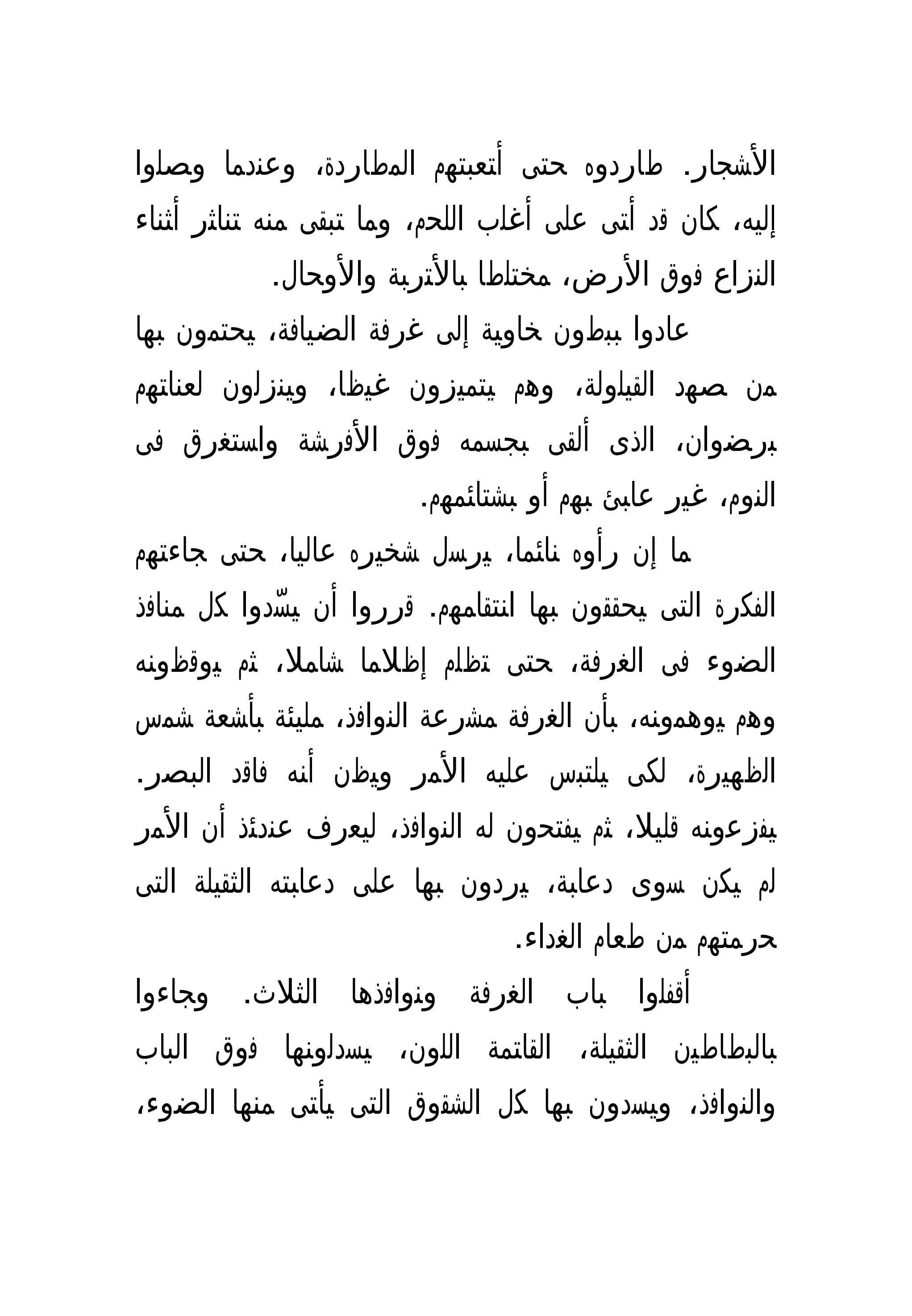
بدأ كل شيء بدعابة من دعابات رضوان، التى أصبحت جزءا من يوم عطلتهم الاسبوعية. يلتقى الأصدقاء الخمسة منذ الصباح وقد أعدوا أنفسهم للنزهة، وهيئوا لها ما تحتاجه من تموين. ثم يستقلون سيارة رضوان الى هذه المزرعة التى أتاح لهم صاحبها فرصة المجيء إليها كل أسبوع. يتنزهون قليلا بين أشجارها وجداولها ويلعبون الكرة فى طرف منها، بعيدا عن الزرع. وتأتى الظهيرة، فيعدون طعامهم، ويقضون فترة القيلولة فى غرفة الضيافة، يتسامرون ويلعبون الورق إلى أن ينتهى النهار.

يفعلون ذلك كل أسبوع، كسراً للروتين، وتجديداً للحياة الوظيفية التى جمعتهم فى مكتب واحد.

دعابة رضوان هذا اليوم كانت ثقيلة، أزعجتهم كثيرا وحرمتهم من أكلة كانوا يشتهونها، فقرروا عقابه بدعابة يكون هو ضحيتها هذه المرة.

كانت مفاجأة النزهة لهذا اليوم، أنهم عثروا على دكان جزار يبيع لحم الإبل، التى صار لحمها نادرا فى السوق بعد أن أمحلت البادية من رجالها وجمالها. وما أن أكملوا نزهتهم بين الأشجار، والتقطوا من حبات الطماطم وجذور الخس ما يكفى لصنع أطباق السلطة، وأعياهم الجرى وراء الكرة، حتى عادوا يجتمعون فى موقع قريب من غرفة الضيافة ويتعاونون فى طهى ما جلبوه من لحم الإبل.

كان رضوان أكثرهم نشاطا ومهارة فى إعداد الطعام، وأكثرهم حديثا عنه، يترجرج جسمه البدين وهو يجمع الأحطاب ويشعل النار، وينفخها بأوداج كثيرة الاحمرار، ثم يمسح دموعه من أثر الدخان، مبديا أسفه لغدر الإنسان ولؤمه بدليل أنهم الآن يطهون لحم حيوان كريم نبيل، أسدى أعظم الخدمات لقاطنى هذه البيئة الصحراوية، وهاهم يكافئون خدماته الجليلة بنحره وأكل لحمه. وبالغ فى استنكار هذا الفعل، والشؤم الذى سيحاق بمن يأكل لحم الإبل، حتى ظن رفاقه أن نفسه سوف تأبى أن تشارك فى وليمة الجمل المغدور. ولكن ما أن استوى الطعام، حتى فوجئوا برضوان، يأخذ القدر الذى احتوى اللحم، ويهرب به مختفيا بين


الأشجار. طاردوه حتى أتعبتهم المطاردة، وعندما وصلوا إليه، كان قد أتى على أغلب اللحم، وما تبقى منه تناثر أثناء النزاع فوق الأرض، مختلطا بالأتربة والأوحال.

عادوا ببطون خاوية إلى غرفة الضيافة، يحتمون بها من صهد القيلولة، وهم يتميزون غيظا، وينزلون لعناتهم برضوان، الذى ألقى بجسمه فوق الأفرشة واستغرق فى النوم، غير عابئ بهم أو بشتائمهم.

ما إن رأوه نائما، يرسل شخيره عاليا، حتى جاءتهم الفكرة التى يحققون بها انتقامهم. قرروا أن يسّدوا كل منافذ الضوء فى الغرفة، حتى تظلم إظلاما شاملا، ثم يوقظونه وهم يوهمونه، بأن الغرفة مشرعة النوافذ، مليئة بأشعة شمس الظهيرة، لكى يلتبس عليه الأمر ويظن أنه فاقد البصر. يفزعونه قليلا، ثم يفتحون له النوافذ، ليعرف عندئذ أن الأمر لم يكن سوى دعابة، يردون بها على دعابته الثقيلة التى حرمتهم من طعام الغداء.

أقفلوا باب الغرفة ونوافذها الثلاث. وجاءوا بالبطاطين الثقيلة، القاتمة اللون، يسدلونها فوق الباب والنوافذ، ويسدون بها كل الشقوق التى يأتى منها الضوء،

حتى أظلمت الغرفة إظلاما كاملا. جلسوا وسط الظلام، يتظاهرون بأنهم يلعبون الورق، ويوهمونه بأنهم يعدون الشاي. وامتدت يد أحدهم تهز بدن رضوان وتوقظه لكى يتناول كوب الشاي.

سمعوا حركة رضوان وهو يقوم من رقاده، يتمطى ويتثاءب.

- هيا أما زلت نائما.

- كيف يواتينى النوم، وأنتم تزعجوننى بكل هذا الصخب.

اكتشف الظلام الذى حوله، فتساءل قائلا:

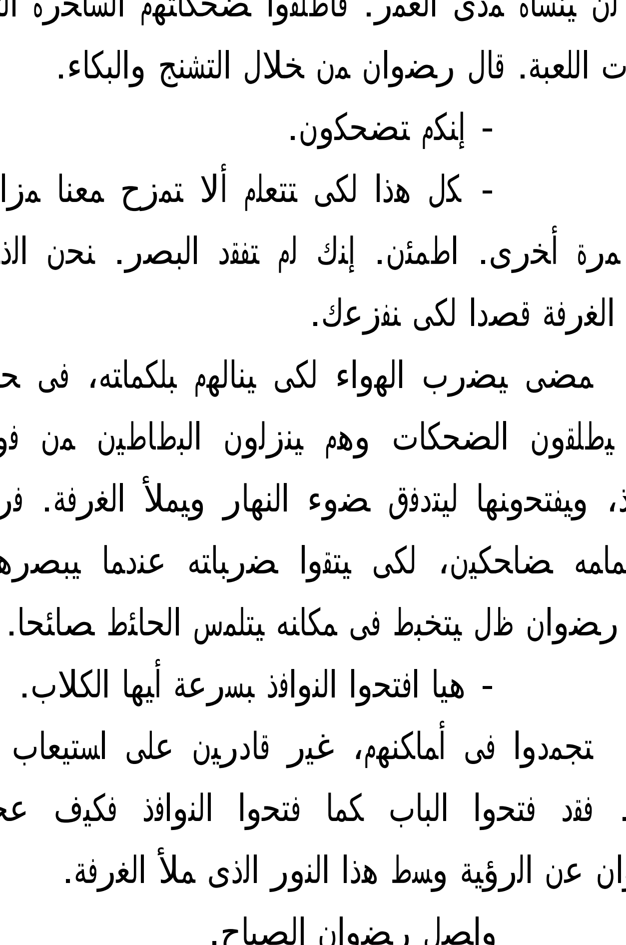
- أين أنتم؟

- هيا خذ هذا الكوب من الشاى الأخضر، لعله ينزل سما يهري معدتك بكل ما استوطت عليه من لحوم.

مضوا يتظاهرون بأنهم يلعبون الورق، وعلا صراخ أحدهم ابتهاجا لأنه حقق انتصارا فى اللعب. فى حين أصر زميله الآخر على أن يده لا تزال ممدودة بكوب الشاي، ويلح على رضوان أن يأخذ الكوب قبل أن يبرد.

- أين هو كوب الشاي. إننى لا أرى شيئا.

- ما هذا الذى تقوله يا رجل. هل عميت؟
- أقول أننى لا أرى إلا الظلام. فهل نحن فى منتصف الليل.
- توقف عن مزاحك الثقيل. فقد نلنا ما يكفينا هذا اليوم. إننا فى منتصف النهار. نشرب الشاى ونلعب الورق. فأين هو الظلام؟
قال صائحا:
- إننى لا أمزح. إننى لا أرى شيئا أقول لكم.
أدركوا أنهم أتقنوا اللعبة. وأن الحيلة قد انطلت عليه. فليذق قليلا مما يسقيه للآخرين. قال أحد رفاقه فى تشف:
- لاحول ولا قوة إلا با . إذن فقد عميت يا رضوان. إنها لعنة الجمل الذى أكلت لحمه بمفردك.
أطلق رضوان صيحة ذعر، ومضى بعدها يضرب الحائط باكيا متشنجا.
- مستحيل. غير معقول. غير ممكن. هل حقا صرت أعمى. مستحيل. كيف؟ لماذا؟ مستحيل.



اطمأنوا إلى أنهم حققوا انتقامهم، وزرعوا فى قلبه رعبا لن ينساه مدى العمر. فأطلقوا ضحكاتهم الساخرة التى فضحت اللعبة. قال رضوان من خلال التشنج والبكاء.

- إنكم تضحكون.

- كل هذا لكى تتعلم ألا تمزح معنا مزاحا ثقيلا مرة أخرى. اطمئن. إنك لم تفقد البصر. نحن الذين أغلقنا الغرفة قصدا لكى نفزعك.

مضى يضرب الهواء لكى ينالهم بلكماته، فى حين ظلوا يطلقون الضحكات وهم ينزلون البطاطين من فوق النوافذ، ويفتحونها ليتدفق ضوء النهار ويملأ الغرفة. فروا من أمامه ضاحكين، لكى يتقوا ضرباته عندما يبصرهم، ولكن رضوان ظل يتخبط فى مكانه يتلمس الحائط صائحا.

- هيا افتحوا النوافذ بسرعة أيها الكلاب.

تجمدوا فى أماكنهم، غير قادرين على استيعاب ما حدث. فقد فتحوا الباب كما فتحوا النوافذ فكيف عجز رضوان عن الرؤية وسط هذا النور الذى ملأ الغرفة.

واصل رضوان الصياح.

- سأنتقم منكم واحدا واحدا أيها الجبناء.

سأمنعكم من ركوب السيارة لكى تعودوا إلى بيوتكم سيرا على الأقدام. ستصلونها بعد أسبوع إن شاء ا . هيا، لماذا تبطئون فى فتح النوافذ. دعونى أرى الضوء، أيها الخنازير. لقد أتعبنى الظلام. سأفتح النافذة بنفسى فأين هي؟

وقفوا فى رعب وصمت ينظرون إلى رضوان وهو يضرب الجدران، ثم هرولوا إليه، يقودونه، وهو يتهددهم ويتوعدهم، إلى خارج الغرفة، بأمل أن يعيد إليه، الوقوف فوق الأرض العراء، وتحت شمس الظهيرة الساطعة، بصره المفقود. ولكن رضوان ظل ينشر ذراعيه فى الفضاء. ويبحث عن نافذة لاوجود لها، وهو يلعنهم ويصيح بهم أن يعينوه على فتح النافذة المغلقة.

عندما أدركوا أن الظلام الوهمي، الذى أحكموه حول صاحبهم، قد تحول إلى ظلام حقيقي، لا تنفذ إليه أشعة الشمس. أدركوا فى حزن وأسى عظيمين، أن رضوان، سيعيش منذ اليوم فاقد البصر.

الذئاب

السماء نائمة هذه الليلة، أغمضت كل عيونهـا، لـم يبرق ضوء نجمة واحدة !

الشجرة التى آوى إليهـا عجـوز قديمـة، بـرزت إضلاعها كجثة رجل مات منذ ثلاثة أعوام، أثـار حـروق وطرقات فؤوس تملأ جذعها العتيـق، وطلقـات رصـاص تناثرت أثارها كثقوب كثيرة فى بدن الشجرة العجوز، لا شك أن فارساً قديماً أحتمى وراءها يتقى طلقات الرصاص، وهو اليوم فارس جديد يأوى إليها ليتقى رصـاص ليلـة شـتوية عاصفة باردة !

عثمان الغول، ليس غريباً عن الليالى العاصفة، فمنذ كان طفلاً يرعى الجديان ويرتدى القميص بلا عبـاءة وهـا يطارد العواصف يهزمها حيناً وتهزمه حيناً، والغـول لـيس اسمه ولد معه، أو اسما جد له أو أب، إنما هو اسم اكتسـبه اكتساباً كما يكتسب البطل لقباً أو وساماً، فقد عـاش حياتـه غولاً يخافه الناس، سرق أيام كان قانون الجوع يفرض عليه أن يسرق، وقتل عندما اضطرته مواقف وأمـور أن يكـون قاتلاً، وعاش هارباً فى جبال وشعاب وعرة لا تطأها أقـدام

إنسان، حتى أيام جرائم الثأر لم يكن للقرية أحد آخر تقدمـه ليأخذ بثأرها غير عثمان الغول، وكثيراً ما انطلقت الزغاريد فى الأفراح لأن الغول قد أسترد للقرية شرفاً مسلوباً، فعثمان الغول كان قطعة صابون تغسل للقرية عارهـا، حتـى فـى خصومات الحرث، والأرض كانت الكلمة الأخيرة له، عندما كان الخصوم ينسحبون فى خوف لتبقى الأرض للغول وأهل قريته يحرثونها، وبعد أن أستتب الأمن واختفت جرائم الثـأر والنهب، كان الغول يكره أن يعيش حياة مستقرة فى القريـة، فكان يبحث عن شعبة من الشعاب يختار كهفاً مـن كهوفهـا يقيم فيه وحده، يقطع الأشجار ليصنع الفحم أو يجمع جـذور الحلفاء ثم يبيعها، كان دائماً كضبع عجوز يعيش بين الشعاب وحيداً، وظل اسمه دائماً الغول، وظل عندما يظهـر علـى الناس بشاربه المفتول الكثيف الأسود، وسحنته التـى ربمـا كانت بيضاء أو صفراء فحولتها السنون الطوال من الشـمس والبرد إلى سحنة قاسية ضاربة السمرة.. ظل دائمـاً مهابـاً يبعث الرعشة فى أصابع القدمين!

وعندما غادر القرية هذا المساء عائداً إلـى إحـدى شعابه، كان الجو يمتلئ غيوماً وغباراً، ثم أظلمـت الـدنيا،

واشتد عواء الريح، وتخفى البرد تحت جلد الليل وجاء متسللاً يعضه من أنفسه وأذنيه ويخترق أجزاء العباءة إلى كل بدنه.. ورأى من الحكمة أن يأوى هذه الليلة إلى هذا الجذع العتيـق يتقى شر هذه الليلة الغاضبة، ويواصل سيره فى الصباح.

جمع عثمان الغول بأصابع مخشوشنة معصورة لـم يعد يؤثر فيها البرد قليلاً من الأعواد والقش، أوقد ناراً، مـد أصابعه، يتدفأ بلهيبها، ويراقب دخانهـا وهـو يـذوب فـى الظلمة... حتى لكأن هذه الظلمة الكثيفة ما هـى إلا دخـان تجمع وتكاثف وتحول ظلاماً !

وكانت العاصفة من حوله كأنها مليون ذئـب تنـبح وتعوي.. وناره وعباءته وجذع الشجرة التى أوى إليها. كلها تنهزم أمام البرد الذى تحول إلى مدراة تنغرز فـى لحمـه، أحس عثمان الغول بنفسه إبريقاً من الفخار مملوءاً بالصـقيع وفوق رأسه كانت الغصون والأوراق يصفعها الريح فتتـألم وتتأوه وتضج بالصراخ وتصر صريراً موحشاً رهيباً كحشود من البشر تسحقها براثن وحش خرافي.

أخرج من وعاء كان معه رغيفاً يابساً من الخبـز.. قربه من موقد النار، ليسخن ويلين قليلاً.. وبـدأ يجـرب أن كانت أسنانه قادرة على المضغ.

وفجأة.

ومن خلال الظلمة، برقت على ضوء اللهب عينـان تقتربان نحوه، وتزحفان فوق الأرض على مهل.

لم تكن عينين آدميتين، كانتا صغيرتين مشروطتين، يتوسط كل منهما بؤبؤ أسود كحبة عقيق صغيرة.

وبدأ يتبين على ضوء اللهب أن هناك ايضاً رأسـاً، وأن هناك أيضاً أذنين. وشيئاً فشيئاً ظهر أمامه كـل شـئ، وكان القادم ذئباً صغيراً، ذئباً رمادياً، امتـزج لونـه بلـون الظلام، استرد اطمئنانه.. كان ذئباً طيباً وديعاً.. رأسـه فـى الأرض، وذيله بين قدميه!

ذئب صغير جائع، مزق البرد أمعاءك أخرجك البرد من جحرك لتبحث عن طعام.. لنتقاسم هذا الرغيـف أيهـا الذئب الجائع الصغير.

أقعى الذئب قريباً من اللهب، مد رأسـه، وأذنيـه.. وظل باقياً!

رمى إليه بقطعة من الخبز، فى هدوء ووقار مد إليها الذئب فمه، ابتعلها شاكراً ثم مد رأسه ينتظر لقمة أخرى !

كسرة ورمى بأخرى إليه التقطها الذئب سريعاً، وظل ينتظر، ثم أخرى، الذئب يبتلعها فى صمت، ثم يمـد رأسـاً رمادياً، وأذنين رماديتين ينعكس فيهما الوهج ينتظـر لقمـة أخرى، رمى إليه بكل ما تبقى من الرغيف، مضغة الـذئب فى هدوء... ثم ظل باقيا فى مكانه..

آن لك أن تذهب أيها الفأر الماكر، أطعمتك عشائى، فماذا تريد أيضاً.. أومأ عليه بطرف العباءة.. ثم حرك فـى وجهه العصا.. لم يتحرك الذئب..

تناول حصى كانت بجانبه، رماه بالحصاة، اختلجـت شعرات بدنه قليلاً وظل باقياً.

يالك من ضيف سخيف ثقيل الدم.

أثار الذئب حنقه فانتقى من موقد النار شهابا كبيـراً، ورمى بالشهاب بين عينيه حتى احترق جبينه، انتفض الذئب فى رعب، كشر عن أنيابه، ودمدم فى غضب.. وخب هارباً وسط الظلام!

وتنهد فى ارتياح.. لقد عرف كيف يطرد هذا الذئب الجائع السخيف.. واتكأ برأسه على جذع الشـجرة، ومـدد قدميه، وسوى أطراف عباءته من حولـه، وقبـل أن يسـبل رموش عينيه لينام قليلاً سمعه ينطلق، كأنه القذيفـة، عـواء ذئب قريب، عواء طويل ممدود كالاستغاثة.. أعقبتـه فتـرة صمت ظن معها عثمان الغول أن الأمر قد انتهى عند هـذا الحد، وهم بأن يعاود رقاده إلى أن العواء عـاد مـن جديـد انطلق من كل الجهات، لم يكن عواء ذئـب واحـد.. إنهـا عشرات الذئاب تعوي.. عواء جاء به الريح مـن بعيـد ... وأخر قريب دوى فى أذنيه كطلقات الرصـاص.. امـتلأت الشعاب عواء وعندما أرهف أذنيه ووصل إليه صوت أقـدام الذئاب وهى تخب وتعدو فى كل مكان انتفض عثمان الغـول واقفاً، وانتصبت أذناه فى خوف، وأدرك كـل شـئ ... أن الذئاب تتآمر عليه.

لقد عوى الذئب الصغير مستغيثاً، فردت عليه ذئـاب المنطقة وهرولت جميعها نحوه، أن يعرفها هذه الذئاب، لقـد حدث مرة أن جمع عليه ذئب جائع كل ذئاب المنطقة، أيامها كان حمل السلاح مباحاً، أطلـق مـن بندقيتـه سـيلاً مـن

الرصاص، هربت على أثره كل الذئاب، وهو اليوم أعـزل من كل سلاح.. ما العمل لقد وقع فى مصيدة الذئب، سـوف تهرول نحوه بعد قليل عشرات من الذئاب الجائعـة، سـوف تغرز أنيابها فى بدنه، وتأكله لحماً وعضماً، والتفت شـمالا ويمينا، وبعاطفة يكتشفها لأول مرة ود لو رأى شـبح كـائن بشري، حتى لو رأى وميض ناره، من بعيد لكان هذا كافيـا لأن يجعله يطمئن ويواجه الأمر بشجاعة، لكن لم يكن هناك سوى الظلام والعاصفة. بقعة مقطوعة عن كل الدنيا.. الليـل يبنى جدران سوداء حوله، وهو معزول، العالم أفـرغ مـن وعائه كل البشر. لم يبق سوى عثمان الغول وحده.. وعليـه أن يواجه الذئاب الجائعة وحيداً.

تجمعت الذئاب.. وصل إليه وقع أقـدامها تهـرول قادمة نحوه من إحدى الهضـاب القريبـة. وبـدافع شـعور غريزى يرفض أن يستسلم للهزيمة منذ أول مـرة، أمسـك بجذع الشجرة، وتسلقها فى سرعة وعندما جاءت الذئاب رآها من فوق الشجرة تتشمم مكانه، وتحوم بموقد نـاره، كانـت ذئاب كثيرة، أكثر من عشرة ذئاب، جاءت يقودها ذلك الذئب

الرمادى الصغير الذى أطعمه رغيفه، لكنه لن يكتفى إلا ببلغى دمه ومضغ كبده ورئتيه.

وعندما اكتشفت الذئاب مكانه فوق الشجرة، تبادلـت النظرات، وزمجرت بالعواء، وهجمت جميعهـا تحـاول أن تتسلق الشجرة وتنشب أظافرها وأنيابها فى جذعها العجـوز، وكانت العاصفة تتآمر ضده مع الذئاب فجمعت كل ما لـديها من برد وريح هناك بين أعراف الشجرة، لتحوله عوداً يابساً من البرد. وكان كل همه الآن أن يجد غصناً لا يهزه الـريح يستطيع أن يثبت فوقه قدميه. وعندما ثبت قدميه ووجـد أن الذئاب قد أكملت حصارها حوله، انتزع غصناً كى يمنع بـه الذئاب من الوصول إليه، كانت الذئاب قد قسمت العمل بينها، اتجه عدد منها يحفر الأرض وينبش تحت عروقها الشـجرة كى يقتلعها من عروقها بعد أن فشل فى تسلقها فى حين ظلت الذئاب الأخرى تنتصب على أقدامها الخلفية وتمـد براثنهـا الأمامية وتنشب أظافرها وتجدف عبر جذع الشجرة، وكـان عواؤها يختلط برعد العاصـفة ورياحهـا وضـجيج أوراق الشجرة فيهبط قلب عثمان الغول إلى قدميه ويمـلأ الـوهن ركبتيه وتلهث أنفاسه وتتهدج كالمخنوق ويحـس أنـه قبـل

غمضة عين سوف يسقط من فوق الشجرة إلى أنياب الذئاب. وظل يومئ بغصنه شمالاً ويمينا ومن أمامـه ومـن خلفـه، والذئاب تقفز حتى تكاد تصله، وتمنى لو كانت الشجرة أكثر طولاً. وحاول أن يجرب غصناً أكثر علواً يثبت فوقه قدمه.. لكن الغصن تكسر تحت ثقله.. وزلت قدمه حتى كادت تسقط فى فم ذئب كان يجهد فى التسلق نحوه، وإهتاج الذئب، وفتح أنيابه وقفز فى الهواء، إلا أنه وبقوة لا يدرى كيف واتته رفع قدمه قبل أن تصلها أنياب الذئب، واهتز قلبه رعبـاً عنـدما أضاءت الدنيا ومضه برق، ولمعت مع تلك الومضة عيـون الذئاب من حوله رأى عشرات العيون تحوطه من كل جانب عيون شرسة جائعة تفتح أفواهها، ورأته الذئاب واضحاً على ضوء البرق، فأطلقت عواء شرساً رن فى جوف الليل رنيناً رهيباً، وتردد صداه فى كل الوهاد. فبدا كأن الكون كله يمتلئ ذئاباً. ولم يكن البرد الذى جمد أمعاء عثمان الغول وورم أنفه وأذنيه وشفتيه وجعل بدنه غصن من أغصان تلك الشـجرة يصطفق ويرتعد، لم يكن هذا البرد إلا شيئاً هيناً بجوار تلـك العيون الجائعة التى لمعت فى الومض.. والتى بدت لعثمـان الغول كأنها عيون بالسة ومردة خرجت له من تحت غطـاء

الليل لتمسخه وتمزق بدنه. وما تنبه عثمان الغول إلا وفمـاً مفتوحاً برزت أنيابه كالمسامير على مقربة منه ورأى ذئبـاً ضخماً قد ارتفع عن الأرض وغرز براثنه فى أعلى الجـذع ومد عنقه كى يصل إليه بأنيابه ويجره من قدمه وازداد العالم ضيقاً امام عثمان الغول، الغصن الذى كان يدافع به كان قـد سقط، والشجرة لم تعد فيها أغصان أعلى يثبت فوقها قدميه، وأنياب الذئب تقترب من قدمه، وبجسارة ومخاطرة لم يـدر كيف جاءته رفع قدمه وهوى بها فوق رأس الذئب حتـى أن الذئب ارتطم بالأرض وهو يعوى عواء رهيباً، ثـم جـرى مبتعداً عن الشجرة، وولى مزمجراً غاضباً وقفز فى الهـواء قفزة شيطانية، لو أن الغول لم يرتم محتمياً بأحد الأعـراف لكانت براثن الذئب قد جرته إلى الأرض.

وبدا لعثمان الغول أن الليل هو أيضاً يتآمر عليه فقد أحس به يطول ويتمدد ويتحول إلى دهور، إلى عمر طويـل لا نهاية له، وفيما كان ينتزع من أعماق الشجرة عوداً آخـر يرد به هجمات الذئاب على إحدى الجهات، لم ينتبه إلا وشيئاً يمسك به فجأة من وراء ظهره ويسحبه فى قوة إلى أسـفل، وكاد يسقط إلى الأرض رعباً، فقد أيقن أن ذئباً قد وصل إليه

من الخلف، وأطلق عثمان الغول صرخة يائسة تردد صداها عبر الأركان الأربع، وتشنجت يداه فـوق أقـرب غصـن، وعندما استدار لم يجده ذئباً قد نبت فى ظهره وإنمـا وجـد طرف عباءته يتدلى مع جذع الشجرة وقد أمسـكته الـذئاب بأنيابها وأظافرها لتجره إلى الأرض، وكـادت تفلـح فـى إسقاطه، لولا أنه ألتفت فى سرعة وسـلخ العبـاءة، رماهـا للذئاب تمزقها، وبقى يواجه هجوم البرد فى أعلى الشجرة بلا عباءة، عارياً سوى قميص يغطى جلده. وأحس بالبرد كما لم يحس به من قبل أحس به يجلده بمليون سـوط فـى ظهـره وأضلاعه ووجهه وعنقه وساقيه.. وعاودت الذئاب هجومها بعد أن لهت قليلاً فى تمزيق العباءة.. وعاود البرق وميضه، وعاودت العيون عشرات العيون الملتهبة الجائعة لمعانها من حوله. وازداد رعبه رعباً عندما ألقى نظرة إلى أسفل فوجـد أن الذئاب قد أفلحت فى أن تشق خنادق أسفل الشجرة التـى كانت تضرب فى الأرض قد تعرت بعد أن حفرتها الـذئاب، وعدد من الذئاب رآه يواصل الحفر بامتداد العـروق حتـى يستلهما من منابتها. عندها.. أيقن عثمان الغول أن الأمر قد انتهى، وأن الذئاب التى لم تفلح بعد فى الوصول إليه فـوق

الشجرة سوف تقلب الشجرة بعد قليل.. لا مفر.. وفكر عثمان الغول فى كل هجماته وجرائمه، فكـر فـى كـل معاركـه وخصوماته ما كان أفضل له لو كان هو القتيل من أن يكون قاتلاً، ما كان أفضل لو اخترقت رصاصة رأسه من أن يسقط الآن بين أنياب الذئاب تلتذ بأكله ظفراً ظفراً وقطعة قطعـة.. أم هل تراه لم ينج من كل تلك الأهوال والمعـارك إلا لكـى يكون وجبة شهية على مائدة هذه الذئاب الجامعة.. ثـم هـذا البرد اللعين الذى صادر ينفذ من خلال جلده إلى كبده وفؤاده وأمعائه يمضغها ويسحقها.. وبدا عثمان الغول خائراً واهنـا فى مواجهة الذئاب.. مستسلماً كخروف العيد.

وبدون أن يحس وجد أن الظلام يتبـدد وأن نكهـة الصباح تنتشر فوق أعراف الشجرة وأن الطيور قد استيقظت وملأت الدنيا تغريداً، وأن الندى صار يـتلألأ فـوق أوراق الشجرة الخضراء ناعماً رطيباً. والذئاب بدت تتسلل الواحـد بعد الآخر.. لم يبق منها سوى التى تواصل الحفـر تحـت العروق.. ثم هى أيضاً مع ذهاب كل أثر لليل صارت تترك الحفر وتخب هاربة، وكان أخر ذئب تسلل هاربا، ذلك الذئب الرمادى الصغير الذى أعمه رغيفه فجمع عليه الذئاب.

وأشرقت الشمس.. ونزل عثمان الغول إلى الأرض في إعياء ووهن.. ومسح المكان بنظرة متعبة كان كل شيء يدل على أن معركة ضارية شهدها الليل الذى تسلل هاربا مع الذئاب. كان جذع الشجرة قد تقشر وتقلم كله.. صار الجذع القديم الكثير الأضلاع الذى يمتلئ حروقاً وآثار وفؤوس ورصاص. صار الآن مسلوخ أبيض كشاه الضحية. الأغصان التى تهشمت تملأ الأرض وأسفل الشجرة قد تحول إلى خنادق يتراكم ترابها كقبور الرجال الطوال.. والعروق التى كانت مدفونة فى الأرض تمتد حتى مسافات طويلة عارية لا يغطيها شيء.. وخرق كثيرة تناثرت عرف فيها عباءته التى مزقتها الذئاب.. وكان عثمان الغول يقف يابساً معروقاً أصفر كشجرة جفت عروقها.. كانت الأغصان التى تسلقها واحتمى بها قد ملأت ذراعيه ويديه ووجهه خدوشاً وجروحاً، أما الذئاب التى حاصرته طول الليل فأنها لم تستطع أن تمسه بشيء. أن ظفراً من أظفارها أو ناباً من أنيابها لم يصل إليه.. ومع ذلك كان عثمان الغول وهو يخب فى قميصه الممزق راعاً إلى القرية، وهو يلتفت شمالا ويمينا كلما تكسرت تحت قدميه عشية يابسة فارتعشت أصابعه

وارتعش شنبه، كان عثمان الغول يحس خلال ذلك كلـه أن ليس حقاً قد نجا من الذئاب. إن شيئاً كبيراً قد فقده البارحـة، شيئاً كبيراً فيه قد أكلته الذئاب!